بشير مفتي

اخْتِلَاطْ المَوَاسِمْ

أو وليمة القتل الكبرى

رواية

مكتبة نوميديا 171
Telegram: @Numidia_Library

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

منشورات ضفاف
Editions Difaf

اخْتِلاَطْ المَواَسِمْ

أو وليمة القتل الكبرى

طبع في لبنان

اخْتِلاَطْ المَوَاسِمْ

أو وليمة القتل الكبرى

رِوَايـة

بشـير مفتي

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

منشورات ضفاف
Editions Difaf
editions.difaf@gmail.com

الطبعة الأولى

1440 هـ - 2019 م

ردمك 978-614-02-1699-0

جميع الحقوق محفوظة

منشورات ضفاف
Editions Difaf
editions.difaf@gmail.com
هاتف بيروت: 9613223227+

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
9 شارع محمد دوزي برج الكيفان
الجزائر العاصمة
هاتف 0776616609
e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشرين

تنبيه

هذه الرواية من خلق الخيال وأي تطابق بين شخصياتها أو أحداثها وبين شخصيات أو أحداث من الوقع هو من غرائب الصدف، وأعاجيب الخيال

المؤلف

توشية

مبرّرة،
كل أشكال الموت مبرّرة
كل اشكال القتل
كل الموت
كل النفوق
لا شيء يذهب سدى
ولا حتى عنق
ذبابة.

تشارلز بوكوفسكي

القاتل

-1-

ما الحقيقة؟ ما الله؟ ما العدم؟ ما الحياة؟ ما الموت؟ ما الشر؟ وما الخير؟ ما أكثر الأسئلة، وما أقل الأجوبة! ما أكثر ما يمزقنا في الداخل، وما أقل ما يريحنا في الخارج! ما أكثر ما نواجه من الشكوك، وما أقل ما نحصل عليه من نعمة اليقين والطمأنينة!

الحياة كما يقول الناس: «مرة رائعة ومرة سيئة، مرة جميلة -أو نحسها كذلك- ومرة قبيحة قذرة، ولا نرى فيها نقطة جمال واحدة!». الحياة هكذا مليئة بالمتناقضات، مليئة بالمآسي والشرور، مليئة بكل شيء ولا شيء، مزيج من عناصر سالبة وموجبة، وعليها تقوم الحياة. كان ذلك الاكتشاف رائعًا للغاية يوم عرفت أنّ الموجب وحده لا نفع منه، والسالب بمفرده لا فائدة منه، ولكنّ الطاقة تحدث من تلاقي الضدين، الانفجار يحدث من بارد وساخن، من عقل ووجدان، من جسد يشتهي وروح تتسامى، من هذه

الأضداد خُلقنا، ومن هذه الأضداد تنفجر المآسي، عندما يحدث الخلل، طرف يغلب طرفًا آخر، جهة تهزم الجهة المضادة. التعاكس الذي بَدَل أن ينتج الحياة ينتج التراجيديا والموت، تُولَد المأساة في الروح أولاً، تصيبها بلوثة سوداء – ربما مصدرها عالم الداخل الغامض، أو من عالم غيبي يصعب الوصول إليه- قبل أن تنطلق الروح المأساوية في حرب ضروس لإثبات تلك المأساة في الواقع، فتقحم تلك الأشياء السوداء في وجود الآخرين.

لا أدري إن كنت أتكلم بحكمة أم بجنون؟! وهل سيستوعب الناس كلامي الآن، مع أنّني في هذه اللحظة أنشد الاعتراف والخلاص، أنشد السكينة. لقد تعبت من ذلك كله، أريد أن أصل إلى الحكمة الأخيرة من هذا المسار الملعون: مساري الخاص، تجربتي في الحياة التي سارت في هذا الطريق و لم تحد عنه كأنّها قَدرٌ سماوي، رغم أنّي منذ صغري كنت أشكُّ في وجود شيء في السماء. أعذروني؛ لأنّي أختلف عنكم! لأنّي لا أشبهكم! بعض الناس يولدون طيبين بقيم الخير والحب، وبعض الناس يولدون في بئر الكراهية، يولدون مزوَّدين بالحقد، محمولين على أجنحة الشرِّ، يعيشون مع الآخرين دون أن يشاركوهم الكثير من تلك المشاعر والقيم التي يتقاسمونها مع بعض، يجدون أنفسهم في عزلة منذ

الصغر. حالتهم غريبة، ينظر إليهم البعض على أنّهم عباقرة، ناس يملكون شيئًا خاصًّا لا تملكه البقية. شيء ما يظهـــر في ملامح وجوههم، في نظرتهم السارحة، مشاعرهم غير المعـــبر عنها بوضوح، يحملون جيناتهم المغايرة، فكرتهم المختلفة التي تقوم على عكس ما يعتقد فيه الأغلبية. لعلّي كنت هكذا منذ الصغر، بروح كثيفة السواد، هل هذا وصــف طبيعـــي؟ لا أدري.

الطفولة ترتسم في عقول البشر كمرحلة براءة، إلاّ أنّـــي منذ الطفولة رأيت نفسي بهذه القتامة، دون قدرة على الفهم أو الشرح، ولم يكن يوجد في الطفولة من ينتبه لشيء كهذا، شيء مروِّع يسكنني، شيء مخيف يستطيع أن يفعل الشر دون أن يعتريه إحساس بالذنب.

هل كنت عديم الإحساس؟! لا؛ مطلقًا. كانت عنـــدي مشاعري المشوشة. كنت أحب أمي وأعطف عليها كـــثيرًا، وأكرهها من حين لآخر مع والدي لأنّهما أنجبـــاني في ســـنٍّ متأخرة. كانت أمي في الخامسة والأربعين وأبـــي يقـــارب الستين، وُلدت في بيت عجائز مسكونٍ بالصمت والوحشة، ولم يُتحْ لي الزمن معرفة سبب تأخرهما في قرار الإنجاب رغم أنّهما تزوجا في مرحلة الشباب، وكان يجمعهما حب قـــويٌّ ومثيرٌ، وكان يظهر ذلك في علاقتهما المترابطة والمتراصة، وفي

تفاهمهما الكامل عندما تحدث مشكلات أو تواجههما ظروف صعبة، شاهدت هذا في أكثر من موقف. وبالنسبة إلي أعطياني كل ما يقدران على إعطائه: من محبة ورفق وتعليم واهتمام. لقد جئت إلى حياتهما باختيارهما، لقد أراداني؛ فكنتُ، و لم يبخلا عليَّ بشيء.

لم أعرف أي نوع من الحرمان في طفولتي، كل ما أريده أحصل عليه، كانا يتدبران أمرهما كي أحصل على ما أرغب فيه، حتى السفر كانا يأخذاني معهما في رحلات قصيرة إلى مدن عديدة من العالم. وكان من المفروض أن يكون كل ذلك دعامة قويَّة في تربيتي على تقديس الحياة وحب الجمال، وإن كنت في الصغر قد تفطنت لبعض الخصوصيات التي تُميِّزني، وبعض المشاعر المضطربة التي تُلِّم بي، والكوابيس التي لا أفقه سرها حيث تطاردني ليلاً فأنهض مفزوعًا والعرق يتصبب من كامل مسامات جلدي؛ إلاَّ أنِّي لم أتصورني مختلفًا تمامًا، وظننت أنَّ حالتي بالرغم من كل شيء لم تكن خاصة، وربما هي سمة جميع الصغار في ذلك الوقت؛ لأنِّي لم أكن أستطيع التمييز أو المقارنة مع غيري.

هذا إلى جانب أنِّي كنت أنفر من الأطفال من مثل سني، وحتى عندما دخلت المدرسة كنت أشعر بعدم رغبة في الحديث أو اللعب معهم؛ إلاَّ أنَّني كنت شديد العدوانية، و لم

كن أتسامح مع من يخطأ في حقي؛ فأصبحت مكروهًا من طرفهم، ويتخوفون منِّي في الوقت نفسه، ذلك أنَّ واحدًا منهم حاول السخرية منِّي فدفعته بكل قوتي فسقط على الأرض وسال الدم من قدميه وراح يبكي ويصرخ. وتعرضي للضرب من طرف المعلم الذي شاهد الحادثة، لم يضعفني، بل جعلني أكثر تماسكًا وقوة، لقد صمت أمام جلده الذي دام لعشر دقائق تقريبًا. لقد أحمرت مؤخرتي حينها وتعذبت ليلاً بسبب ذلك، لكنني كتمت ذلك وكنت من القوة بحيث لم يظهر على ملامحي أيُّ علامة ضعف أو شيء يذكر. و لم أخبر والدي بالحادثة، لكن صرت مُهابًا من الجميع، كانت تلك الحادثة مؤثرة في الآخرين أكثر ممَّا أثرت فيَّ.

لقد كنت متفوقًا في الدراسة، لكن لم أكن أشارك في الحصص، أميل إلى الصمت، حتى يظن المعلمون أنِّي جاهل وأحمق، فيريدون السخرية منِّي ويطلبون إجابات عن أسئلة يطرحونها حتى يخلقوا مشهدًا مسرحيًّا هزليًّا أمام تلاميذهم، فأردُّ عليهم بثقة وترفع فتتحول سخريتهم إلى استغراب واندهاش كبيرين، فكان ذلك يدفعهم لتركي لحالي، ولقد كان ذلك هو المقصود. أنا لا أرغب في المشاركة داخل القسم، ولا اللعب مع الأطفال، دعوني أقضي عقوبتي تلك بصمت وهدوء أحسن، لكن التلاميذ لا يأخذون العبر ممَّا

حدث، ولا يرحمون بعضهم بعضًا، لقد اتفقوا على مواجهتي مرة أخرى حتى يعطوني درسًا حينها. كنت أعيش خارج الجماعة، وكان هذا بالنسبة إليهم شيئًا ضارًّا، فإمَّا أن تكون معنا أو لن نتركك تتنعم بوحدتك بسلام! أذكر أنَّ ذلك حدث بعد نهاية الدراسة، كانوا ثلاثة أغلبهم ذوو أجساد خشنة على عكسي. كنت لحسن حظي قد جهزت نفسي لكل الاحتمالات، وبقيت أنظر لهم، وكانت نظرتي دائمًا ثاقبة، مؤذية، وحدها قادرة على إرسال شرارات قاتلة وخلْق بعضِ الذعر في الخصم، لكن الثلاثة كانوا على استعداد كامل لإعطائي الدرس ولإهانتي، فلم تفعل قوة نظراتي شيئًا غير أنَّها أشعرتهم بقوتي، وأن كونهم ثلاثة لن يجعلني أخاف أو أهرب، بل كان الهرب غير مبرمج نهائيًّا في ذهني. كنت على استعداد للقتال حتى الموت، رغم أنِّي كنت في السنة الحادية عشرة، وهم في نفس سني تقريبًا، لسوء حظهم كنت جاهزًا للمعركة، لقد أحضرت معي سكينًا من المطبخ، وعندما أخرجته أمامهم شاهدت حينها بأم عينيَّ ذلك الفزع الذي سيطر عليهم، وكأنَّهم انتظروا كل شيء إلاَّ أن أفاجئهم بهذا السلاح الأبيض، ودون أن يصدر من أي واحد مهم كلمة صغيرة فروا جميعهم في رمشة عين، واختفوا تمامًا من أمامي.

ارتسمت على شفتي ابتسامة فرح غامضة، أحسست بالسعادة العميقة التي لا أستطيع حتى شرحها لكم، ليس لأنّي أرعبت ثلاثة أطفال كانت نيتهم النيل منّي وإشباعي ضربًا حتى استسلم وأعلن أمامهم هزيمتي الكاملة، فلا تقوم لي بعد ذلك قائمة؛ بل لأنّي كنت واثقًا بقوة مبهمة في روحي.

لقد شعرت بهذه القوة دائمًا، وهي التي قلتُ لكم: «إنّ مصدرها سرِّي للغاية»، ربما هي قوة غيبية، أو روحية، أو شيطانية، المهم أنّها قوة جبارة لم تكن حتى نفسي تتحملها أحيانًا، وكانت تفرض عليَّ الابتعاد عن الآخرين، وعدم مخالطة أحد، ومتابعة سيري في الحياة دون تفكير في أبعد من اليوم الذي أعيش فيه، والبقاء في البيت أطول وقت ممكن.

كانت لي غرفتي الكبيرة، المجهزة بكل ما أحتاج إليه، غير أنّي لم أكن أحتاج إلى أشياء كثيرة. كان يكفيني السرير الذي أنام فوقه، المكتب الصغير الذي أدرس فيه، بعض آلات الرياضة التي تساعدني في القيام بحركات رياضية يومية، بعض الكتب المصورة التي تتحدث عن الفلك وألغاز الكون وباطن الأرض والبحار والغابات والأشجار، بعض القصص الملونة. وكان يوجد مصحف صغير لم أتصفحه يومًا، اشترته أمي لي وقالت أتركه كبَرَكة فوق مكتبك، مع أنّ أمي لم تكن متدينة، وكنت أشكُّ في إيمانها بالله والرُسل، شأنُها شأن

والدي، ولكنَّهما كانا ينظران إلى الحيـــاة بتســـامح كـــبير، ويعتقدان في أشياء غامضة لم أحاول فهمها يومًا. كانا يميلان إلى البوذية والصوفية ولأفكار لم يناقشاها معي، أو لم يشعرا بأهمية أن يشرحا لي هذا الطريق الذي سلكاه باختيارهما معًا وجعلهما يعيشان بالشكل الذي يعيشان به حتى مجيئـــي إلى وجودهما، والذي لم أشعر أنَّه غيَّر خط ســـيرهما في الحيـــاة. بالنسبة إليهما؛ فقد قررا إنجابـــي لتستمر الحياة بعدهما في ابن ما، كان يمكن أن يكون شخصًا آخر، برؤيـــة وحساســـية أخرى مختلفة عني، ولكن كنت أنا لسبب أجهله، و لم أهـــتم كثيرًا بشرح ذلك لنفسي أو لغيري، وربما أحسًّا بأنِّي مختلف، لي طباع خاصة مثل حب العُزلة، وعدم الرغبة في المخالطة، وحب الاكتشاف والقراءة، والاعتماد على نفسي دون طلب مساعدة، واعتبرا ذلك علامة عبقرية ما، ولم يرياني سيئًا من الطفولة، أو ذلك الجانب المظلم من روحي. مرة فقط والدتي ارتعب ممَّا فعلت، لقد كانت لها قطة مدللة ومزعجة، كانت أمي عادة ما تحتضنها وتغني لها مرات، وتطردها مرات كثيرة عندما تجدها تدس لسانها في قدر الأكل في محاولة لأنْ تظفـــر منه بقطعة لحم، «اذهبـــي يا ملعونة»، وترميها بالقبقاب حتى تصرخ القطة فتفر هاربة. كان منظر القطـــة يـــزعجني أنـــا كذلك، وكثيرًا ما ركلتها بقدمي حـــتى تطـــير في الســـماء

وتسقط بعيدًا عني، ثم تفر هاربة، لكنَّها تعــود دائمًــا لأنَّ والدتي كانت تعطف عليها، وتقدِّم لها الأكل اللذيذ، غير أنِّي مرة وأنا أشاهد أمي تطردها خارج البيت، حــتى خرجــت وراءها، لقد استفزتني بدوري، وقررت قتلها، و لم أكن أدري ما هو القتل حينذاك، كانت فقط قوة خفية بداخلي تقول لي خذها إلى مكان خفي، واخنق رقبتها بيديك حــتى تلفــظ أنفاسها، وهذا ما قمت به بالفعل، تحت تأثير صوت داخلي مُلِحٍّ، جعلني أقتل لأول مرة، تلك التجربة التي لــن أنســاها طوال حياتي، لقد أحسست بالقوة قبل التنفيذ وباللذة الغريبة بعد التنفيذ! كانت تجربة نادرة ومؤثرة ومحددة لطريقي كــي أصبح قاتلاً في ما بعد!

* * *

لا أدري أي شيطان رجيم دفعني لأخبر أمي بما فعلت، ولأول مرة كانت الصراحة مشينة، حيث شاهدت في عــيني والدتي بقعة الخوف تكبر فيهما بسرعة البرق، وبعدها جــاء دور والدي الذي ما إن سمع بما حدث، حتى صدمته القصة، وطلبا منِّي أن أشرح لهما أكثر، و لم أجد ما أشرحه، وبقيت صامتًا وناقمًا من نفسي أنِّي صارحتهما بالحقيقة، و لم أُظهــر أي علامة على أنَّني اقترفت ذنبًا أو ارتكبت جريمة ما زاد من

مخاوفهما منِّي، ورعبهما عليَّ، وانتهت المحاكمة بأن طلبا منِّي أن لا أعود لعمل شيء كهذا، وأنَّ القطط مخلوقات بريئة، ولا يحق لنا تعذيبها، أو قتلها مهما كانت الظروف والأسباب، ورغم أنِّي دافعت عن نفسي حينها بالقول: «إنَّ الحيوانات خُلقت لتفترس بعضها البعض؛ فهي إمَّا قاتل أو مقتول، مفترس أو ضحية، وأنَّ هذا يدخل كما قرأت في ناموس الكون والطبيعة، لكن لم يُقنعهما دفاعي، وحاولا أن يُفهماني أنَّنا -نحن البشر- نسمو عن الحيوانات بالعقل، وأنَّ هذا الأخير هو الذي يجعلنا أرفع مستوى من جميع الخلائق الأخرى الموجودة على الأرض، فلا نعتدي -خاصة عندما نكون أقوياء- على الأضعف منَّا، بل نساعده ونأخذ بيده.

كان كلامهما منطقيًّا بعض الشيء، لكن لم يغير من إحساسي باللذة والراحة الكاملة ممَّا قمت به، واعتبرته يدخل في صميم سعادتي الروحية حينها، فقط، أزعجني بعدها كيف أصبح تعامل والديَّ معي يتغيَّر شيئًا فشيئًا، ويميل إلى الكثير من الشكِّ والريبة والحذر، حيث راحَا يضيقان عليَّ الحصار، ويطرحان عليَّ أسئلة كثيرة عندما أخرج، ويريدان معرفة كل ما أقوم به في المدرسة، أو عندما أغيب لبعض الوقت متسكعًا في الشارع، كانت صدمتهما كبيرة بإقدامي على قتل القطة الصغيرة بدم بارد، وهذا ما جعلني في لحظة من الزمن

أكرههما بحق، وأقلل من تواصلي معهما في الكلام، وأغلق على نفسي الباب وحيدًا في غرفتي طول الوقت، فأجلس مع نفسي أكثر، غير أنَّ ذلك البقاء في الغرفة وحدي كان يجعلني أفكر في أمور سيئة، واستعيد لحظة قتلي للقطة بلذة سعيدة، فكنت أضطر للخروج، والمشي في الشارع والأحياء المجاورة دون هدف، فقط للهرب من ذلك الإحساس الغريب، من ذاكرة ذلك الفعل الذي قالت لي أمي: «إنَّه منافٍ للطبيعة»، بينما تجاوب مع طبيعتي الخاصة، وعجزت عن توضيح الأمر لها خاصة أني قرأت الكثير عن تاريخ البشر، وأنَّ كل ما حدث في تاريخهم الطويل هو القتل والتدمير والعنف!

أذكر أنِّي يومها قرأت أول رواية كبيرة في حياتي، وأنا في الثالثة عشر من عمري، وجدتها في مكتبة والدي بعنوان **الجريمة والعقاب**، وهي لروائي روسي اسمه دوستويفسكي، ما شدني لها هو العنوان، ثم براعة المؤلف في الحكي، والقتل الذي حدث، ها هي الجريمة تحدث، ها هو القاتل يشعر بتأنيب الضمير، الشيء الذي لم أكن لأشعر به أنا لو فعلت جريمة من هذا النوع!

قد يبدو لكم الأمر غريبًا، لكن تلك كانت أحاسيسي حينها، وبصدق أعجبني في الرواية أنَّ البطل كان واعيًا أنَّ قتله -رغم كل شيء- لم يكن جريمة تستحق العقاب، ولماذا

البشر يؤلهون مجرمين كبار مثل: (بونابرت) الذي قاد الجيش الفرنسي في حروب وغزوات كثيرة، وقتل الآلاف المؤلفة في تلك الحروب من أجل السلطة والمجد، ويعتبره شعبه عظيمًا وعبقريًا وفذًا مع أنَّه من منظور الطبيعة البشرية الطيبة قام بأشنع الجرائم والمنكرات، وبينما (راسكولنيكوف) قتل عجوزًا شمطاء شريرة في أفعالها وسلوكها عانى من ذلك المصير الأسود في داخله، قبل أن يكون مصيره أسود في الحياة نفسها، كم كانت فذة الرواية لولا أن دوستويفسكي حاول جاهدًا أن يشعر قاتله بالذنب، الشيء الذي لم يكن ليحدث لبطلي لو كتبت أنا القصة حتى لو قتلت نصف سكان الأرض! فما دام البشر ينافقون ويكذبون، يقبلون القتل عندما يكون في سبيل الوطن أو الدين أو أي قيمة يرسمونها لأنفسهم، ويرفضونه عندما يكون على مستوى فردي؛ بل يعتبرونه انحرافًا عن الطبيعة، الطبيعة التي تبرر القتل في مواقع، ولا تبرره في مواقع أخرى، إمَّا أن ترفضه كاملاً أو تقبله كاملاً، وليس أن تبرره في موقف وترفضه في موقف آخر...

هل كنت أرغب في إقناع نفسي بشيء محدد من خلال كل ذلك النقاش الطويل معها خلال سنوات طفولتي وحتى مراهقتي؟! وعلى العموم؛ لم أعد لقتل القطط أو أي حيوان

كان، ولكن فكرة القتل لم تبرح تفكيري يومًا، لقد وضعتها فقط على جانب من حياتي.

كان عليّ أن أنسجم مع عائلتي حتى استمر، وحتى أعيد ولو ظاهريًا تلك الثقة التي فقدوها فيّ، وأحسبهم استعادوها بعدها؛ لأنّي حاولت فجأة بعد سنوات من تلك الحادثة التحول إلى شخص (طبيعي) ظاهريًّا على الأقل، ورحت أنفتح رويدًا، رويدًا على الآخرين، وأحاول التعرف على البشر أجمعين، فأكتشفهم من جديد، ربما لمستْ رواية دوستويفسكي خيطًا شعوريًّا عميقًا ومجهولاً في نفسي، مع أنّي لم أقتنع كثيرًا بتلك الطيبة الإنسانية التي تأتي دائمًا من الضعف، ولكن وجود الضعف يبرر كثيرًا من مشاعر الناس الخيرة؛ إلاّ أنّه يمنحها صورة عن أخلاق مزيفة، ويسكبها في نفاق جماعي يحاول البشر عبره إخفاء كل شرورهم التي لا يتمكّنون من إروائها لظروفهم أو بسبب قلة حيلتهم.

لقد كان عندي يقين أنّ البشر أشرار بالفطرة؛ بل فطرتهم شريرة، ولكنهم يتكيفون مع الحياة كما هي معطاة أمامهم، وكما رسموا لها قوانينها وشروطها حتى لا يبتلع بعضهم البعض؛ لكن في العمق: الإنسان حيوان مُفترِس أو مُفترَس لا غير! لا يوجد حتى منطقة حياد ممكنة، لكنَّهم يُخفون ذلك، لقد خلقوا منظومات فكرية ودينية لتعطيل

غريزة الحيوان فيهم، ومع ذلك لم يتعطل حيوان القتل عندما يجد الفرصة المناسبة لممارسة حقه الطبيعي في الوجود، اطلبوا من أي شخص أن يقتل أي شخص دون أن يناله عقاب، وسترون ماذا سيحدث، سيقتله حتى من باب أن يجرب فعلاً إجراميًّا كهذا!

أنا أعتقد في هذا ولا يهمني من يعتقد في العكس؛ لأنَّ الأغلبية ستقول: «إنَّ هذا ينافي الطبع البشري!»، هؤلاء لا أظنهم خبروا أو فهموا يومًا معنى الطبع البشري، والذي يمكن اختصاره في القدرة على فعل الشر دون حدود لمن استطاع إلى ذلك سبيلاً. ومن لم يستطع سيتخفى وراء أقنعة الأخلاق والحكمة والإنسانية، وكلها أقنعة مزيفة، ليس ثمة صلة بينها وبين الإنسان إلاَّ في مجتمعاتنا المعاصرة التي تحاصر حيوانية الإنسان في القتل وتفتح هذه الحيوانية على مصراعيها في جوانب أخرى! انظروا في الجنس مثلاً، إنَّهم يوسعون من مداراته كل يوم، يتكرون فيه كل لحظة، إنَّه الغريزة التي لا تشبع وهم يريدونه من دون شبع حتى تدر عليهم مالاً وفيرًا، فالناس بدل أن يحققوا بعض راحتهم من خلال ممارسته، تجد القوة الرأسمالية تزيد من حدة الجوع الجنسي؛ لأنَّ الهدف الأسمى هو خلق حرمان أبدي. «الرجل لا يَشبع، والمرأة لا تُقهر ولا تَرتوي!»، إنَّها الحيوانية الكاملة، يمكنك تصفح

بعض المواقع الجنسية ستجد فيديوهات لكل أنواع الجنس من الممارسة مع الحيوانات إلى الاعتداء على الأطفال، كل أنواع الشذوذ، ما تطلبه سيكون تحت قدميك، المهم ادفع من بطاقتك الإلكترونية، أو أرسل حوالة مالية على العنوان الفلاني، وكلما دفعت زادت حاجتك، وتضاعف إدمانك ولن تشبع، ولن تشبع وستظل تجري وراء سراب مستحيل، حيوانية لن تكتمل فيك، إنَّها الحقيقة كما صار عليها البشر، أو كما كانت دائمًا، الحيوانية هي الأصل والثقافة تشويهات على الحقيقة البشرية الحيوانية تلك. هذه الأفكار أقولها حتى تفهموا أشياء قد تصدمكم منِّي، أو قد تعتبرونها خروجًا عن خط سيركم الإنساني المستقيم، ثم أنا لا أذكرها لأبرر أي شيء، لقد فكرت هكذا من الأول، وكبرت بهذه الرؤية للعالم، ولم أحد عنها قطُّ.

* * *

لم أتغير كثيرًا، عندما كبرت، أقصد لم يصدر مني شيء سيئ منذ حادثة قتل القطة وشعوري بتلك اللذة الروحية والجسدية الغريبة، وكما أخبرتكم: فقط تكيَّفت قليلاً مع المحيط الذي أعيش فيه، حتى توفي والدي! في البداية: مَرِض بمرضٍ تافهٍ، يتعرض له الجميع دون أن يُتوفَّوْا، ولكن لأنَّه

كان مدمنًا على شرب الويسكي كل ليلة؛ تُوفي بعد إصـــابته بزكام خفيف في فصل الشتاء من عام (1992)؛ فلم يتحمـــل جسده ذلك، وبعدها لم تمرَّ إلاَّ فترة قصيرة حتى لحقته والدتي دون مرض، بشكل غريب وجدهّا نائمة في الفراش، حاولت أن أوقظها؛ فلم تستيقظ! وأدركت أنّها ماتت، كان جسدها باردًا ونحيلاً!

بدا الموت وكأنّه انتزعها من الحياة انتزاعًا، أخذها رغم أنفها، فأمي كانت تحب الحياة وترغـــب في المزيـــد منـــها، ودفناها في مقبرة سيدي أمحمد، أي غير بعيـــد عـــن حـــي العناصر، حيث تركوني وحدي أعيش في بيت واسع تطوقـــه حديقة جميلة، وبالرغم من إحساسي بالكثير من الألم، الذي يشبه جسدًا عاريًا يمشي في غابة مليئة بالأشواك؛ إلاَّ أنّـــي لم أذرف دمعة واحدة، حتى الجيران وبعض الناس الغرباء الذين حضروا إلى الجنازة وتابعوا مراسم الدفن شاهدهم يبكـــون فراق هذه المرأة الطيبة التي كانت حسبهم تعطف على الفقراء وتساعد المساكين، أما أنا؛ فكل ما حـــدث لي هـــو أنّـــي استعدت ذكرياتي معها، ولم تكن كلها جميلة، وشعرت أنّي لم أتحدث معها كثيرًا في الفترة الأخيرة قبل موهّا، لقد كانت غارقة في حزن طويل على رحيل زوجها، كما ظلت منشغلة بأمور تعنيها، كزيارة الأضرحة، وهو الشيء الذي لم أفهـــم

غايته قط، وأذكر فقط في جلسة جمعتنا بغرفة الصالون قالت لي:

- «إنَّ هذا العالم الذي تراه مجرد خرافات وغيبيات هو الذي يساعدنا على تقبل فناءنا، أي عندما ينزعنا الموت عن الحياة».

أخبرتها حينذاك بخشونة وبلسان سليط كعادتي عندما لا تقنعني فكرة ما:

- «لا يخيفني الموت، وإن مت الآن، أو غدًا، أو في أي وقت؛ فهذا سيكون مريحًا لي».

أعتقد أنَّ طريقة محادثتي معها بهذا الشكل هي التي جعلتها -وقد كبرت وصرت شابًا في ريعان العمر، وأدرس بالجامعة بمعهد الحقوق بن عكنون- تتجنبني كثيرًا، ولا تفتح معي أي موضوع، لقد كانت تُظهر لي -كلما نظرت نحوها- أنَّه توجد في عيونها خيبة كبيرة مني، وكانت تلك الخيبة المشعة كضوء القمر تزيد من غربتي عنها، وعن الآخرين... كانت ترميني في هاوية سحيقة ومظلمة، فتوثِّق صِلتي بالعالم الآخر، العالم الذي توجد فيه الظلمات، أو ما يسميه البشر البائسون كذلك؛ لأنَّهم يخافون منها، وما يخافه الإنسان يتهمه بكل شيء سيئ ويصفه بأقبح النعوت، بينما كانت الظلمات هي تلك المنطقة التي تجذبني وتغريني أكثر،

دون أن أعرف ما الذي كان ينتظرني هنالك، في تلك العتمة المرعبة لغيري، والمغرية لي؟!

لقد صرت وحيدًا إلاّ من نفسي! لم يعد هنالك مَن يتحكم في أفكاري أو حركاتي، وحتى لو قمت بمجزرة ضد كل القطط لن يعترض عليَّ أحدٌ، أنا حرٌّ في بيتي، ولا يحقُّ لأيٍّ كان أن يتدخل في أموري الخاصة والعامة من ذلك اليوم فصاعدًا، لقد صرت بشكل ما سعيدًا.

كنت في السنة الثانية من الجامعة، عندما بدأت تحدث مواجهات مسلحة بين المسلحين المتدينين والجيش والشرطة والأمن، كان الطلبة في الجامعة مرعوبين من فكرة انفجار قنبلة داخل المعهد، أو هجوم مسلحين تحت صيحات: «الله أكبر»؛ فيقتلوهم على بكرة أبيهم، أما أنا؛ فلم يتسلل الخوف إلى داخلي قطّ، بل وجدتُني على عكس ذلك أتفاعل إيجابيًّا مع الذين يَقتلون باسم هذا أو ذاك، كأنّهم بذلك الشكل المتوحش الذي يظهرون به للعلن ينتصرون للقاتل فيَّ! لذلك الشخص الذي شعر بعد قتل قطة أنّه سعيد، بينما رأته والدته مجرمًا! ها هو الإجرام البشري الذي كنت أتحدث عنه يحدث أمامكم، وتشاهدونه بأم عيونكم، ماذا تقولون الآن -أيها البؤساء-! أليس القويُّ هو الذي يسحق الضعيف، أليست هذه هي الحيوانية البشرية التي ترفضونها فيكم وهي أهم ما

يميزكم، أليس هذا ما كنتم تهربون منه والآن تواجهونه في بيوتكم وأحيائكم ومدنكم وقُراكم وجبالكم وغاباتكم؟! لقد كان القتل يزدهر في كل منطقة من الجزائر، ويحصد الآلاف من الرؤوس البشرية كل يوم. كان حزني الوحيد أنّي لا أستطيع المشاركة في عرس الدم هذا، مع أنّي داخليًّا كنت أجهز نفسي للقيام بذلك، ولكن بذكاء وحكمة القاتل الذي لا يقتل من أجل هذا الشعار أو ذاك، بل الذي يتلذذ بالقتل لذاته.

* * *

قررت أن أنتقل إلى الفعل... في تلك الأجواء -التي كانت مساعدة بالفعل على ذلك- تركت الجامعة والتحقت بسلك الأمن، وتمّ قبولي نظرًا لمؤهلاتي العلمية سنة ثانية حقوق، بنية جسدية متينة، ولأنّهم في أشد الحاجة إلى منخرطين جُدد يحاربون المسلحين المتدينين، كان عليَّ فقط المرور بفترة تربُّص دامت ستة أشهر، كانت على مستوى التدريب رائعة؛ إذ استفدت منها الكثير، وخرجت الأول في دفعتي، ولكن على المستوى الحياتي؛ فقدتُ حقًّا كل إيقاع حياتي السابق، كنت أكره النوم في تلك الغرفة الجماعية الكبيرة، كان ذلك يضايق شخصًا تعوَّد على غرفة نومه

الخاصة، وكنت مجبرًا على المحادثة مع غيري في مواضيع تافهة ولا تهمني كثيرًا، لكن من أجل الغاية التي كنت أطلبها كان يهون حجم التضحيات، متمنيًا أن أتخرج بسرعة وأذهب لقتال المجرمين، وهذا ما حدث بالفعل في شهر مارس من سنة 1994، حيث التحقت بمركز أمني في بوزريعة، وأعطي لي السلاح للدفاع عن نفسي، وعن البلد الذي كان يهوي تحت ضربات المسلحين المتدينين، وكان أحوج ما يكون لسواعد الشباب المتخرجين حديثًا من الثكنة، الذين عليهم تقع مسؤولية الانتصار في المعركة.

أول مواجهة كانت في جبل الكاف حيث سمعنا بتحرك جماعة الإرهابي (الشوكة) في حي قزديري، وطلب مني قيادة فريق التدخل، ولأول مرة عندما وصلت لتلك المنطقة عرفت أنّ فِرقًا أخرى من مؤسسات أمنية أهمّ من سلكنا نحن كانت حاضرة، وأنّ وجودنا كان فقط للمتابعة عن بُعد؛ فأحسست بالإهانة والضجر، لم أحضر هنا إلاّ لأقتل، ولهذا على عكس زملائي في فرقتي الذين فرحوا بعدم إقحامهم في المواجهة، بحثت عن الضابط الأمني الأكبر في تلك اللحظة، وطلبت منه أن أكون مع المهاجمين، نظر إليّ مستغربًا بعض الوقت، ثم قال لي: حسنًا كن معنا.. وعندما بدأت المواجهة بعد حصار البيت المشتبه أن يكون الارهابي و(الشوكة)

مع جهاديه مختبئين فيه، راحت طلقات الرشاشات والبنادق تمزق صمت الليل وتحدث وجعًا في الأذن، وعلى عكس من كانوا معي كنت أول من حاول الاقتراب، بالرغم من سماع صوت الضابط خلفي: لا تقترب منهم كثيرًا، دون أن أبـــالي بالتحذيرات، تقدَّمت، رميت عليهم قنبلتين مسيلتين للدموع، توقف إطلاق الرصاص من طرفهم، فقذفتهم بوابـــل مـــن رصاص رشاشتي، حتى نفذت ذخيرتي فأخرجت المســـدس وتقدمت أكثر ثم دفعت الباب بقوة ودخلت، وجدت الثلاثة مطروحين أرضًا وواحد فقط ينزف دمًا في ركبته ويستغيث فكدت أفرغ فيه ما في أحشاء مسدسي لولا وصول الضابط الذي أمسك يدي ودفعني إلى اليسار، وهو يقول: توقف يـــا أحمق نحتاجه للتحقيق.

صرت في دقائق البطل الوحيد في تلك الليلـــة، حـــتى الضابط الأمني الكبير أثنى على شجاعتي، وتهوري، وإخلاصي للوطن في مواجهة البراغيث، وأعطاني بطاقة زيـــارة عليهـــا عنوانه ورقم هاتفه وهو يقول لي: غدًا أحتاجك.. مُرَّ صباحًا على مكتبـــي.

رغم أنِّي قتلت ثلاثة أشخاص واحد منهم كـــان رئـــيس عصابة المسلحين المتدينين ومبحوثًا عنه منذ سنة تقريبًا؛ إلاَّ أنني لم أشعر حينها بأي سعادة حقيقية، كان القتل وظيفيًّا في إطـــار

القيام بمهمة عمل، ولغاية غير التي تثير فيَّ تلك الحالة الغامضة، وغير المسماة من السعادة، لكن المؤكد أنِّي أخيرًا لبست الثوب الذي يليق بي، وأصبحت أعيش في المكان المناسب لي.

كما توقعت احتفى بي الضابط الكبير في ثكنته كما يجب، وقدَّمني حتى لضباط كبار كانوا يرتدون بزات عسكرية بنياشين فخمة ونظارات شمسية سوداء، ويدخن أغلبهم سيجارات أجنبية، شكروني جميعًا وهم يرددون نفس الكلام تقريبًا كلما تحدث معي واحد منهم: «أنت النوع الذي نحتاجه في هذه المواجهة الصعبة مع هؤلاء البراغيث... وأين كنت مختفٍ علينا؟ وكيف ظهرت فجأة؟».

الجميع كان يشكر ويضحك، وكنت بدوري مجاملة لهم أضحك معهم، وأهز رأسي موافقًا على كلامهم الذي لم يكن يزيد من غروري أو يرفع من حماستي، فما كان يهمني بالدرجة الأولى أن أكون معهم في تلك اللحظة، أي أن أكون مع صفوة القوم الذين يستطيعون ممارسة القتل دون تأنيب ضمير، أو محاكمة عادلة. هؤلاء الذين أعطتهم المشروعية السياسية الحق في ذلك لإنقاذ وطن يتهاوى تحت ضربات مسلحين يؤمنون بالقتل الأعمى في سبيل دين يقدسونه ويرونه الحق الذي يستحق أن يقتلوا أو يموتوا في سبيله.

***

من ذلك اليوم صرت ضمن فرقة خاصة تسمى فرقة الموت، فرقة المهمات الصعبة والقذرة والمستحيلة، الفرقة التي تقدَّم دون خوف في المعارك الحاسمة، وتجهز على الخصم في وقت قياسي، الفرقة التي مهمتها أن ترعب العدو وتحدث فيه فزعًا لا ينساه.

هكذا قيل لي! ووافقت دون حتى أن أمر على تدريبات أخرى تؤهلني لأكون معهم في فرقة الموت، فالضابط راح يقدمني بهذا الشكل: هذا الشاب شجاع ولا يخشى الموت ويستطيع وحده أن يهزم أي عدو مهما كان يملك من سلاح أو يحمل من قوة، لقد شاهدته بعيني هاتين يفعل ذلك مع إرهابي خبيث قتل الكثير من رجالنا في كمائن، وقام بالعديد من التفجيرات في مؤسسات الدولة يقتله برصاص رشاشته وبشجاعة لم أشاهدها من قبل طوال عملي في هذا السلك.

بدأت مرحلتي الجديدة مع فرقة الموت، التي كان يُعترَف لها بالشجاعة والقوة والإقدام، وبتنفيذ أصعب المهمات في ذلك الوقت، غير أنَّ العمل مع جماعة والعيش معهم لم يكن مريحًا لي على الإطلاق، ولهذا ذهبت لمكتب الضابط بعد ثلاثة أشهر من التحاقي بهم لأطلب منه طلبًا خاصًّا استغرب له حقًا، وراح يتأملني بعينين فاحصتين مدققتين بخبرته الأمنية

الكبيرة والتي يبدو مع كل ذلك أنّها خانته في فهمي، وبدوت كشخص غريب لم يسبق له أن شاهد شخصًا مثلي:

- يا ابني نحن نعمل تحت سلطة القانون.
- أعرف ذلك، ولكن هؤلاء مجرمون يستحقون القتل.
- نعم أعرف يستحقون كل أنواع القتل الموجودة فوق الأرض، لكن يبقى هنالك شيء مهم نحن لسنا مثلهم نحن ندافع عن الوطن، ويجب أن ننفذ المهام الموكولة لنا حتى لو كانت قذرة بنبل.
- أليس المهم هو الفعالية؟
- نعم.. ولكن أنت تطلب مني أن تكون قاتلاً محترفًـــا تعمل وحدك.. هذا شيء يخرج عن خط القـــانون الذي نعمل به، وإلاَّ أصبحنا مثلهم.
- هل أفهم من كلامك أنك ترفض طلبـــي؟
- لم أرفض سأستشير من هم فوق في القيادة وأخبرك.

قدمت له تحية عسكرية واســـتأذنت بالانصـــراف، ولا أدري لماذا كنت متأكدًا أنّهم سيقبلون طلبـــي، خاصة أنّهم كانوا في حرب مفترسة وشرسة، ولا يستطيعون التفريط في موهبتي.

***

بدأت سيرتي كقاتل محترف في منتصف التسعينيات، وقبل ذلك تعرضت لفحوصات طبية قبل أن يعرضوني على طبيب نفسي طرح عليّ أسئلة كثيرة عن حياتي وطفولتي ورؤيتي لعدة مواضيع، وربما خلص إلى أنّي شخص طبيعي، وهذا ما كنت متيقنًا منه، وأنّني أملك فقط شجاعة خاصة تؤهِّلني لخوض المعارك دون خوف من الموت، وأنّي عُملة نادرة من هذا الباب، ولا يجب التفريط في موهبتي تلك بل استغلالها أحسن استغلال.

التقيت بالضابط الذي سأرمز لاسمه بـ (ع)، وهو رجل في العقد الخامس، بعينين بنيتين، له نظرة حادة، قصير القامة، مع نحالة في الجسم، كان يدخن كثيرًا، بل لا يتوقف عن التدخين، بمجرد أن ينهي سيجارة حتى يشرع في الثانية، لم يزعجني الأمر كثيرًا، رغم أني لم أكن أدخن، و لم أكن أحب رائحة التبغ، لكن بما أن هذا الشخص سيكون هو قائدي في هذا الميدان فأنا كنت على استعداد لتقبل كل شيء.

أدخلني إلى مكتبه الصغير الذي كان يقع في دهليز الثكنة، مكتب يقع في طابق أرضي لا يقترب منه أحد، في هذه المنطقة قلة قليلة فقط مسموح لها بالدخول، وأنا لم أشاهد في الحقيقة إلا الضابط (ع)، ومرة وقع نظري على امرأة في نفس عمري تقريبًا، أي في الخامسة والعشرين بشعر

أسود قصير، كانت ترتدي بدلة عسكرية وتمضغ اللبانة، و لم تقدم لي أي تحية عندما شاهدتني، وعرفت لاحقًا أنَّها قاتلة محترفة هي الأخرى، وحسب ما فهمت بعد تدرجي في المهنة؛ لأنِّي صرت أتقاضى عليها أجرًا مرتفعًا حتى لو لم أنفذ أي عملية قتل، وهذا ما أزعجني في البداية؛ لأنَّهم طلبوا مني فقط أن أكون جاهزًا يوم يحتاجونني في مهمة أنفذها، ثم تركوني لحالي، كان مكتب الضابط (ع) بلا أثاث تقريبًا كرسيين خشبيين وطاولة خشبية أيضًا، وطلب مني الجلوس، وهنَّأني على المنصب الجديد فشكرته، ثم بصوت منخفض قال لي:

- سمعت أنَّك أنت من طلب هذا؟
- نعم سيدي؟
- لماذا؟
- لأنِّي لا أحب العمل في جماعة.
- وأيضًا؟
- أشعر بفعالية أكبر لو نفذت العمليات بمفردي.
- هل أنت متزوج؟
- لا سيدي.
- هل لك عشيقة؟
- لا سيدي.

- كيف لا تكون لا متزوج، ولا تملك عشيقة وأنـــت في مثل هذا السن.
- لم أفهم سيدي.
- كل الشباب يحب الاستمتاع بالنساء.
- نعم سيدي.
- وأنت لماذا لا تفكر مثلهم؟
- لست مثلهم سيدي.
- هذا غير طبيعي.. يجب من اليوم أن تبحث لك عن عشيقة أو حتى عاهرة إن لزم الأمر.
- حاضر سيدي.
- يمكنك أن تذهب وتعيش بشكل عادي في بيتـــك، وإذا طلبناك يجب أن تكون جاهزًا
- أنا جاهز دائمًا سيدي.
- حسنًا يمكنك الانصراف الآن.
- شكرًا سيدي.

على عكس المتوقع أعجبتني صرامة الضابط (ع) الـــذي طوال فترة الاستجواب لم يتوقف عن التدخين حـــتى كـــاد يصبح مكتبه شبه ضبابـــي، بالكاد تراه وهو يسأل، صحيح أن مسألة النساء أثارت نوعًا ما دهشتي قبل استغرابه هو، و لم أفهم لماذا لم يكن عندي رغبة كبيرة في النساء، أو لم تشكل

هاجسًا ملحًا كما هي عند باقي البشر، خاصة الرجال، الذين بحسب ما عرفت منهم، هي موضـوعهم الأول والأخـير، فلماذا لم تكن موضوعي الأول، ليس لي من تفسـير إلاَّ أني كنت مشغولاً بالهاجس الأول، الرغبة في أن أقتل وأشعر مع القتل باللذة الروحية والجسدية على السواء.

سأعترف أنَّ قتل البشر ليس بالسهولة المتصورة بالمقارنة مع قتل الحيوانات الأليفة مثل القطـط أو حـتى المفترسـة، للأسف لم أجرب قتل حيوان مفترس مثل الأسد أو النمر أو التمساح، ولو أتيحت لي فرصة قتل تمساح لما ترددت للحظة واحدة، فهذا الحيوان لا يعجبني شكله بالخصوص، نعم كله بالنسبة لي منفر، إنه شكل عدواني، وماكر، وحتمًا ستكون تجربة قتله لذيذة للغاية.

قتل البشر يعتبره البعض مخالف للطبيعة، لكـن بمـا أنَّ هنالك منطق يجعل القتل طبيعيًّا من منظور عقائدي أو أمني أو وطني؛ فهذا يعني أنْ ليس فيه شيء يخالف الطبع البشـري، فالقتل إن بررناه لأنفسنا صار هو طبعنا الحقيقي، بل صار هو جوهرنا الحقيقي، ثم هنالك التعود، فالبعض قد يشعر في أول عملية قتل يرتكبها بالألم يعتصره من الـداخل، وبالضـمير المؤنب، وهي أمور تأتي من الثقافة والتربية على كل حـال، وليس من غريزة الإنسان التي هي مفترسة بالأساس، لكنَّـه

عندما يكرر العملية مرة ومرتين أو ثلاث، يذهب عنه ذلك القلق والتوتر، والتأنيب، بل تراه ربما يجد بعض السعادة في أنَّه قتل، أو أن القتل يحقق له توازنًا نفسيًّا حقيقيًّا، وأنَّه إن لم يقتل فسيشعر بحرمان من شيء أساسي في توازنه ذاك، ويصبح القتل مثل المخدر الذي كلما أدمنت عليه ازدادت حاجتك إليه؛ ولهذا لم تُروعِّني الجرائم التي ارتكبها المسلحون المتدينون باسم منطقهم الديني حتى في حرق الأطفال والتنكيل بالنساء وقطع الرؤوس وغيرها، إنَّهم يعتقدون ذلك شيئًا مقدسًا يتقربون به من خالقهم، ويرون عكس الناس المتضررين أنَّ هذا الفعل الإجرامي المروع للأغلبية هو الذي سيجعلهم يفوزون بالجنة، ويلقون ربهم فرحين، مبتهجين أنَّهم قاموا بفريضة الجهاد محبة فيه، وتقرُّبًا منه، وطلبًا لرحمته وفردوسه الأعلى. على الأقل لا أقتل لطلب شيء، أنا أقتل تقرُّبًا من عالمي الداخلي الذي يسمونه بالظلمات، وهو مكان غريب في النفس، مليء بالأسرار والزوايا المعتمة، وأنا لا أريد اكتشاف زواياه المعتمة تلك، ولا إنارة ظلماته، إنه يطلب مني فقط أن أرضيه؛ لأنِّي بذلك أرضي نفسي وما أنا عليه.

***

عدت إلى بيتي في حي العناصر وأغلقت على نفسي الباب، وتفقدت غرفة واحدة وراء الأخرى، بدا لي واسعًا وكبيرًا، قمت بتفريغه من مختلف محتوياته ورميتها في الشارع، وكانت معظمها لوالديَّ، فأنا لم أكن بحاجة إلى مشاهدة أشباح الذاكرة تتجول أمامي، وتأسرني في شبكتها العنكبوتية، أريد الحاضر فقط وما يستطيع أن ينزله عليَّ من نعم صغيرة أو كبيرة لا يهم، لست متطلبًا، حتى المال لا يهمني أن أكسب منه الكثير، علاقتي بالمال سيئة على العموم، لقد ترك لي والديَّ مبلغًا كبيرًا في البنك، ولم أفكر لحظة واحدة أن أذهب لإخراجه، ربما أحتاجه في أيامي القادمة، لقد بدأت أفكر في ما اقترحه عليَّ الضابط (ع) من ضرورة أن يكون لي عشيقة، كيف أعثر على عشيقة يا ترى؟ ثم فكرت في العاهرات، هؤلاء بالمال يمكنهن مصاحبتي، وبدأت في تلك الليلة أبحث عن عاهرة مناسبة، ذهبت إلى ملهى ليلي برياض الفتح، وصلت في العاشرة ليلاً، تجولت بنظري في النساء الجالسات على الأرائك، كن كثيرات من كل الأعمار، من كل الأشكال، مجهزات لكل أنواع الرغبات، عليك أن تدفع الثمن المناسب فقط، أخذت مكانًا لي بالقرب من واحدة كانت تضع باروكة على رأسها، وتكبرني حسب هيئتها الشكلية بعقد بأكمله، رحبت بقعودي أمامها،

وضعت فخذها الأيمن الناصع البياض على الأيسر، هي أيضًا تدخن، عرضت عليَّ سيجارة فرفضت بأدب، قالت: لا مشكلة؟ وسألتني ماذا أشرب؟ فقلت لها: اشربي أنت على حسابي، طلبت من النادل أن يحضر لنا زجاجة ويسكي صغيرة، من نوع «جيمي والكر» وهي تسألني: هل هذا هو مشروبك المفضل لم أخطئ؟ تصنعت ابتسامة ودية، ثم قلت: هذه أول مرة سأشرب فيها.. انفجرت مقهقهة بعفوية، أعجبني ذلك في الحقيقة، لم أكن أنتظر أن تعجبني طريقة تلك العاهرة في إدارة الحوار معي، وهي تقوم بدورها بصورة روتينية معتادة، فلن أكون الأول ولا الأخير من الغرباء الذين يمرون على طاولتها ويجلسون إلى جانبها وتمارس عليهم بعض إغوائها بحسب ما تشعر به من رغبة عند الطرف الثاني، وهي ترى الشرب والسكر ضروريًا في عملية الإغواء، فهو الذي ينشط عند الرجل رغباته الجنسية الخامدة. لكن بما أنها وجدت نفسها مع شاب يظهر عليه التهذيب وبعض الغنى وعدم الرغبة لا في التدخين ولا في الشرب فأطلقت ضحكة عالية، وهذا أعجبني ربما لأني فكرت في تلك الهنيهة من الزمن، في تلك الومضة الغامضة من الحياة، وهي تضحك بعفوية على شخص تراه ساذجًا ربما أن أضع يدي الخشنتين على رقبتها الرقيقة، وأضغط بقوة غريبة فأخمد أنفاسها في

تلك اللحظة، أقتلها ساعتها بكل لذة، هي أكبر من لذة مجامعتها دون شك.

لكني لم أفعل شيئًا، بقيت أتحدث معها، أو بالأحرى راحت هي تتحدث معي، سألتني بفضول عن عملي فلم أجبها طبعًا، ثم ما هي الأشياء التي أرغب فيها جنسيًا، شرحت لها أني جديد في هذه اللعبة، عادت للضحك من جديد، مستغربة من حالة فريدة تظهر لها في هذه الليلة من ليالي ملهى رياض الفتح، وعندما جاءت قنينة الويسكي، أفرغت لي المشروب الذهبي في كأسي ثم في كأسها وقالت: في نخب رجل فريد من نوعه، فقلت في نخب عاهرة سعيدة بحياتها.. وبدل أن تضحك هذه المرة شعرت أن كلمتي أوجعتها، وتفجرت بالبكاء، حتى ظننت أنها تذكرت شخصًا عزيزًا فقدته منذ فترة قصيرة، فهؤلاء البشر البسطاء لا يذرفون الدموع إلا على الموتى؛ لأنَّهم يذكرونهم بأنَّ حياتهم فانية، حاولت تهدئة روعها، معتذرًا عن كلمتي السيئة التي خرجت من حلقي دون قصد، حتى توقفت عن البكاء، وأخرجت منديلاً أبيض قدمته لها كي تجفف دموعها، فأمسكته بعصبية، وراحت تمسح به مخاطها ودموعها، ثم رفعت بصرها نحوي وسألتني: والآن ماذا تريد مني؟ فقلت لها بكل وضوح: كم الليلة؟ فردت (مليون)؛ أجبت بسرعة: اتفقنا.

خرجنا من الملهى وسط صخب السكارى وأغاني الراي الماجنة التي لم تكن تطرب أذني حينها، وإن كانت تضاعف من حالة السكر عند المخمورين وتقربهم أكثر فأكثر من عالم صفاء يبحثون عنه في ذلك الشرب المجنون.

أخذت سيارة أجرة وركبنا في الخلف، وضــع شـــريط أغنية عاصمية قديمة لم أطلب منه أن يغيرها، وصلنا بســـرعة إلى مسكني بحي العناصر، كانت الساعة تشـــير إلى الثانيـــة عشرة ليلاً، قال لي السائق: حذار من السهر كثيرًا، القتلـــة يتربصون بالناس. قلت له مازحًا: أتمنى أنك لست منـــهم. لم يعجبه تعقيبـــي على كلامه، أعطيته النقود وخرجـــت مـــع العاهرة التي تسمي نفسها (سِمْسِمْ).

دخلنا البيت، سارعت سِمْسِمْ إلى الحمام لتتقيأ، بعد أن وضعت قنينة الويسكي على أول طاولة واجهتها، لقد أصرت أن تحضرها معها من الملهى ما دمت دفعـــت ثمنـــها، وإن لم أشربها أنا فستشربها هي. تركتها تفرغ ما في جوفها ثم تعود وتسأل بسرعة بوجه فقد كل شهيته: أين ننام؟ قلت لهـــا في الغرفة التي في آخر الرواق، وأشرت بأصبعي كي تهتدي لها، ثم نسيتها، لم تكن عندي أي رغبة في مجامعتها، تمددت فوق الأريكة الجلدية حتى رن الهاتف:

– نريدك أن تنفذ عملية الآن، سيارة تنتظرك بقـــرب

بيتك، المعلومات تجدها عند السائق.

لبست ثياب العمل بسرعة، حملت معي مسدسي كاتم الصوت، وخنجرين إن اقتضت الأمور ذلك، وما هي إلاّ ثوانٍ حتى كنت في السيارة السوداء، والسائق يعطيني ملفًا مليئًا بصور الشخص المطلوب قتله، يا لها من لحظة، أو لأقُل: يا لها من رعشة أنستني كل ما كان يعكر مزاجي حينها، وجعلتني أدخل في حالة صوفية خالصة، متعة غريبة لا توصف، حتى قبل أن أصل إلى مكان العملية، وعندما وصلت بعد ساعة تقريبًا، أرشدني السائق إلى بيت الشخص الذي سأقتله، وأضاف: هو وحده الآن، عائلته ليست بالبيت، الحق لم يثر فيَّ خبر وجود عائلة له أي شعور بالاستياء، فقط كانت الإثارة الداخلية هي التي تجعلني كما لو أنّني أطير بجناحين في السماء.

أضاف السائق: يتركون لك حرية التصرف في طريقة القتل، فقط لا تترك أي شيء يدل على مرورك.

خرجت من السيارة في لمح البصر، توجهت ناحية البيت كالسهم، فتحت الباب الخشبي بطريقتي الخاصة، تسللت إلى الداخل، وجدت الرجل يشخر، وهنا واجهتني مشكلة كيف أجهز عليه بالمسدس أم بالخنجر، ربما ما سيرعبكم أني سأفضل الخنجر، حتى يكون موته بطيئًا، حتى أشاهد لحظة

مغادرة الروح له، حتى أشعر بتلك اللذة الغريبة التي شعرت بها يوم قتلت قطة أمي الصغيرة، نعم اخترت قتله بالخنجر، كانت لحظة مثالية، فعلت ذلك ببرودة كاملة، وعندما فتح الرجل عينيه كانت روحه تصعد ودمه ينزف. تركته يتخبط وعدت من حيث أتيت بالطريقة السريعة نفسها، صعدت من الخلف في السيارة التي انطلقت مسرعة هي الأخرى وأنا أرتعش من الإثارة والنشوة، عدت لبيتي سعيدًا، وجدت سِمْسِمْ متمددة على بطنها فوق سريري عارية، جاهزة لأن تنكح، شعرت باستثارة جنسية لأول مرة، أخرجت قضيبي ووضعته بالضبط في ثقب مؤخرتها فأيقظتها وتمتمت كلامًا لم أتبينه، ولكنَّها بسرعة عادت للنوم، ونمت أنا فوقها.

* * *

جاءني بعد يومين استدعاء من الضابط (ع) فذهبت على الفور، وبعد أن هنأني بنجاح المهمة، والقضاء على ذلك الإرهابي الخطير، طلب مني أن أكتب تقريرًا مفصلاً أشرح فيه كيف نفذت العملية؟ بدا لي طلبه غريبًا فسألته: ولكن لماذا تقرير، أليست العملية سريّة، وغير مصرح بها؟ رد عليّ بسؤال جديد: «وكيف كان شعورك وأنت تنفذها؟»؛ أجبته على الفور:

- سيدي أنا أنفذ مهامي بكل انضباط وفعالية؟
- سألتك شعورك كيف كان؟
- كانت معنوياتي مرتفعة للقيام بواجبـــي.
- حسنًا لا يهم التقرير.
- كما تشاء سيدي.
- تستطيع أن تعود إلى حياتك الطبيعية، وكن علـــى استعداد دائم لتنفيذ ما نطلبه منك في أي وقت مـــن النهار والليل.
- حاضر سيدي، أنا في الخدمة.
- وحسنًا أنك تعرفت على العاهرة سِمْسِمْ
- ماذا سيدي؟!
- لا شيء... تستطيع الانصراف.

أربكني فجأة إقحامه لسِمْسِمْ في الحديث، وكان ذلـــك يعني أنّي تحت المراقبة، وأنّهم يعرفون كل خطواتي، أقلقـــني هذا الوضع، بل أثار صداعًا عنيفًا في رأسي راح يجأر بقـــوة، ويجعلني أحس كأنّي محبوس، لم أفكر في الأمر بهذا الشـــكل، ظننت أنّي سأتمتع بحرية كاملة، وأنّي سأقوم بمهامي في ظلام الليل كما حلمت بذلك دائمًا، وفجأة ظهر لي أن ذلك مجرد حلم سرابـــي، لكن الأوان قد فات للتراجع إلى الخلف، و لم يعد أمامي إلاّ تقبل تلك الوضعية، لا حل آخر إلاّ أن أقبـــل

بقواعد اللعبة التي اختاروها لي، وحسبـــي أن ألبـــي غريزتي في القتل كلما طلبوا مني ذلك.

* * *

مرت سنوات التسعينيات السوداء عليَّ بهـــذا الشـــكل تقريبًا، كانت تأتيني مكالمات ليلية تطلب مني أن أنفذ مهمة فأنفذها دون نقاش، كان الأمر يحدث بشكل أتومـــاتيكي، القتل عملية سهلة، ولم تكن تخيفني بل تسعدني، كان علـــيَّ فقط ألاَّ أترك شيئًا يدل على مروري، طبعًا نسبت بعض تلك المهام التي قمت بها في الصحافة لأسماء لا أعرفها، بعضـــهم تجار مخدرات، لصوص طريق، مدمني كحول... إلخ ومرات كانت تنسب لأجهزة أمنية تعمل في وضح النهار: «تمكنـــت فرقة من الدرك الوطني من القضاء على الإرهابـــي الفـــلاني يوم كذاك على الساعة كذا...»، وشخصيًا لم يزعجني يومًا لمن ينسبون ما قمت به، كان آخر همي أن أخرج من ظلمتي إلى نورهم، ومن سوادي إلى ضوئهم، فأنا ابن الليل، وهـــو اللباس الوحيد الذي يناسبني ويسعدني...

لا أدري كم كانت حصيلتي من القتلى، المهم فعلت ذلك بكل سعادة، وحققت لنفسي ما تمنيت تحقيقه منـــذ الصـــغر، وأصبحت دون أن أنتبه إلى قاتل محترف بالفعل، غير أنَّ نهايـــة

الحرب وتوقف القتال واستسلام المسلحين المتدينين أو معظمهم أحالني على التقاعد فجأة، فلم يعد هنالك حاجة ماسة إلى خدماتي، وحتى عندما طلبت العودة إلى العمل في مركز أمني عادي رفض طلبي، قال لي الضابط (ع): خلاص انتهى دورك. الآن يمكنك العودة إلى حياتك الطبيعية، حاولت أن أشرح له بأن تلك هي حياتي الطبيعية، وما يقصده هو بالطبيعية ليست طبيعية بالنسبة لي، لكن كيف أشرح له ذلك، رغم أنّي شعرت أنّه كان يفهمني جيدًا، يفهم طبيعي النفسية المختلفة، منذ أول يوم نظر إليّ ونظرت إليه شعرت أنّه فهمني جيدًا؛ لأنّه ربما يكون من فصيلتي نفسها، لكنّه ردَّ بصرامة الضابط الذي يطلق الأوامر دون رغبة في النقاش:

- الحرب توقفت، يجب أن تنسى كل ما فعلته خلال هذه الفترة، بل الأفضل لك أن تشطبه من ذاكرتك نهائيًّا، وحاول أن تجد لك عملاً آخر تقوم به.

وأضاف بعد صمت قصير تخلله إشعال سيجارة بتوتر واضح:

- القتل ليس مهنة نبيلة حتى لو كانت تحت شرعية القانون.

كدت أصرخ في وجهه بغضب: الآن تقول لي هذا الكلام، وبالأمس فقط كنت تهنئني على كل روح أزهقها في

سبيل الوطن وبقاء الدولة واستمرار الجمهورية... لكن كيف أتكلم معه مصارحًا، وهو شخص لا يظهر حماسة كثيرة للجدل في أي شيء، إنه شخص غامض، تمنيت لو أمكنني التعرف على أسراره، إنه شخص قويّ وبملامح منفرة، ربما ملامح وجهه التي تميل للعدوانية هي التي جعلته يشرف على فرقتي القليلة العدد بمهارة وذكاء، وحتمًا لم يتم اختياره لهذا السبب مباشرة، لا شكَّ أنَّ وراءه تاريخ طويل حافل بالقتل على طريقته الخاصة. كان الفرق بيننا فقط في كوني لم أكن أؤمن بأي انضباط عسكري ولا يهمني أن أترقى في الرتب العسكرية، كما يطمح كل من ينخرط في السلك الأمني والعسكري، كان حلمي الأقصى أن أمارس لذتي بكل يسر، وأن لا أتعرض لأي عقاب على ما أقوم به، كانت فكرة أن أعاقب على متعتي الخاصة أمرًا مرفوضًا، لا لأنها قد تؤدي بي إلى الهلاك والموت، فأنا لا أذكر أني شعرت يومًا بمثل هذه الخشية من الموت، فلم يكن يهمني مغادرة الحياة، بل أن أحرم من شيء أستلذه واعتبره نوعًا من الصلاة الروحية الخالصة، التي أتقرب فيها من ذلك الإله أو الشيطان المظلم في داخلي!

قبلت قرارهم في النهاية، فمن أنا حتى أرفض أمرًا يأتي من جهة عُليا، حتمًا لم يعد مسموحًا فيها بممارسة ما كنت أفعله طوال سنوات الحرب، أذكر فقط أني وأنا أغادر المركز

التقيت بتلك المرأة التي عرفت أنَّها كانت مثلي قاتلة محترفة، وأنَّها نظرت إليَّ وابتسمت، فابتسمت، لم يكن مسموحًا لنا بالحديث مع بعض من قبل، والآن بما أنَّهم فصلوني قلت ما المانع أن أسألها: هل طردوك أنت أيضًا؟ ردت عليَّ: نعم، ولكن هذا أفضل... أريد أن أعيش الآن، أتزوج وأكون عائلة وأرتاح من كل ما اقترفته. هززت رأسي موافقًا، فهمت أنَّها لا تشبهني على الإطلاق، إنَّها كانت تقوم بواجبها فقط، وفكرت ربما يكون ممكنًا أن يمنع القاتل بين حياتين، حياة ليلية وحياة نهارية، حياة قاتل وحياة إنسان عادي يتزوج وينجب أطفالاً، ويظهر في المجتمع كما كل الناس العاديين، الذين لا يثار حولهم الشك، أو يشار لهم بأصابع الاتهام، شاهدت هذا في الكثير من المسلسلات والأفلام الأمريكية التي تتحدث عن شخصيات قاتل السلاسل كما يسمونه، لكني بسرعة صرفت نظري عن الفكرة من الأساس، لا، لست هكذا، ولا أريد أن أكون.

***

عندما تركت الجهاز وجدت نفسي وحيدًا بالفعل، نمط حياتي تغير، ومن دون ممارسة القتل، لم يعد لحياتي معنى، ولا ركيزة تستطيع أن تجعلني أقف على قدميّ وأمارس لذتي بكل

عنفوانية وإثارة، انطويت فترة من الزمن على نفسي، تقوقعت بداخلي وسجنتني في البيت لا أبرحه إلا لحاجيات ضرورية، تضطرني للخروج والاختلاط بباقي الناس، الذين كانت مظاهر الفرح بتوقف الحرب تثير بهجتهم بالفعل، بينما نغصت عليَّ حياتي وأحالتني على التقاعد، ثم ركبني وسواس مخيف، ماذا لو قرروا التخلص مني، وماذا سأفعل لو حاولوا ذلك؟، وهل سيحاولون ذلك؟، كنت متيقنًا أنهم يعرفون حتمًا أنِّي شخص غريب، ولا أشبه الناس أجمعين، وأنَّه يستحيل عليّ كشف أي سر، ثم ليس عندي أي دليل على أنِّي فعلت ما فعلت، لقد قمت بذلك باحترافية كبيرة، و لم أترك ما يدلُّ على مروري، أو ضلوعي في ارتكاب الجريمة، وقلت في نفسي: ربما سيفكرون أنِّي تعودت، ولن أتوقف عن القتل، ربما أرعبهم أنِّي أستطيع ذلك لو رغبت؛ لأنِّي أملك القدرة والدهاء والفطنة التي ستساعدني على قتل من أريد دون حتى أن يعرفوا من القاتل؟ ربما الضابط (ع) سيعرف لكن سمعت أنَّه هو أيضًا أحيل على التقاعد، وأنَّه سافر إلى بلد مجهول، أو ربما لم يسافر، هو في بيته الآن يجلس قبالة شاشة التلفزيون ويشاهد مقابلة في كرة القدم، ومن حين لآخر يلعب مع أبنائه أو يحادثهم، الحق لم أعرف يومًا شيئًا عن حياته، لقد كان كتومًا للغاية، ومتسترًا على ما يدل على

طبعه، أو شخصه الحقيقي في الواقع، كان ذلك يـــدخل في مهامه حتمًا، رغم أنّي لم أكن سعيدًا أنّه عكسي يعرف كل صغيرة وكبيرة عن حياتي، وحتى علاقتي بالعاهرة سِمْسِم كان يعرف تفاصيلها جيدًا، ولكن حتى هي لم يعد يغريها البقـــاء بقربـــي، خاصة عندما جربت معي فعل الجـــنس بطريقـــة خطرة وأنا أشترط عليها أن أخنقها مـــن رقبتـــها بيـــديّ، وكادت تموت لولا أنّها أخرجت من حقيبة يدها التي كانت بقربها علبة سوداء صغيرة لغاز مسيل للدموع جعلتني أرفـــع يدي عنها بسرعة، ومن يومها سبتني بكل النعوت القـــذرة، ولم تعد إلى بيتي.

تركت العاهرات لحالهن، فهن لا يفكرن إلا في المـــال، وممارسة الجنس معهن مضجرة، مجرد تمثيل في تمثيل، يعـــرفن كيف يكذبن لأنّهن تعودن على ذلك الفعل، حتى لم يعد يثير فيهن أي لذة، صحيح أن فكرة قتل سِمْسِم راودتـــني عـــدة مرات، خاصة عندما يطير عني النعاس في الليل، بينما هـــي تتمدد فوق سريري الواسع وتغرق في نومها اللذيذ والطويل، كم تحب النوم، قالت لي: أنا حياتي في الليل فقط وفي النهار أظل نائمة، ولكن عندما أحضر عندك أجد فرصتي لمعاشـــرة النوم من جديد في وقته المفضل. كنت أدور مـــن حولهـــا، أراقب خلجات نفسها وطريقة تنفسها، أشاهد جسدها من

الخلف، مرات تثيرني للفعل ومرات تستثير القاتل فيَّ فأخرج خنجرًا من درج طاولة المطبخ، وأتخيل أني أضعه على رقبتها ثم أشاهد دمها يتناثر كمياه نافورة في فضاء الغرفة، وأحس بلذة خاطفة لكني لم أفعل، لا أدري لماذا امتنعت؟ وما الذي خلق جدارًا بيني وبينها، ربما مكتوبها كما يقال عند الناس البسطاء، ربما ساعتها لم تحن، وحتى عندما غضبت مني وتركت البيت، ولم تعد إليه جال في بالي أن أقوم بما لم أقم به طوال الخمس سنوات من حياتي كقاتل محترف، أن أقتلها وأنهي حياتها التعيسة، لقد كانت دائمًا متذمرة من حياتها السيئة، من عملها كمومس في ملهى ليلي، من قذارة جسدها الذي يحمل آثار كل الرجال المسحوقين الذين مروا عليه... من روحها التي تصفها بأنها بلا روح، فاسألها عن قصدها: الشيطان لوثني من الأعلى إلى القاع، دائمًا الشيطان، هذا الكائن الخرافي الذي يلصق به البشر نزعاتهم العنيفة أو تصرفاتهم غير السويّة، كما يعتقدونها هم على الأقل، أما أنا فلم يكن بقربي شيطان لعين يوسوس لي منكراتي ويحثني على اقتراف السيئات في حياتي، كنت شيطان نفسي، وكنت أعتقد في وجود شخص مجهول ومستتر بداخلي، لا يظهر إلا في حالات خاصة، شخص يشبه وجهي في المرآة، عندما أنظر إلى المرآة فأشاهد يبتسم لي، شخص هو أنا بالتأكيد؛ لأنَّه

يملك ملامحي، ويرتدي نفس ملابسي، ولكنَّه لا يستطيع الخروج من قفصي الداخلي، محبوس هنالك، وأنا كل ما كنت أقوم به من قتل أفعله إرضاءً لقدسيته التي أحملها له، وإشباعًا لرغابته التي صارت مع الوقت هي كل رغباتي.

***

ماذا أفعل؟

تركني التقاعد مشلولاً، لا أقوى على الحركة، كرهت نفسي حينها، لم أجد ما يعوضني عن فقدان العمل، فكرت في العودة إلى الدراسة بالجامعة، وقررت ألا أدرس هذه المرة حقوق التي كانت مضجرة بالنسبة لي، بل علم نفس، وربما بشكل خاص التحليل النفسي، نعم، فكرت في دراسة تفيدني، علم يساعدني على فهم من أكون، ولماذا أنا هكذا؟ حتى لو اعتبرت ما أنا عليه هو الشيء الطبيعي بالنسبة لي، ولكن كون الناس لا يفهمون طبيعتي وحاجياتي لأن أقتل فهذا يزعجني، وعليَّ قبل أن أشرح لهم منطقي في الحياة، أن أشرح لنفسي ما يحدث لي، لكن كان ذلك مجرد أمنية، فلم أعد إلى الدراسة، كانت عندي مكتبة كبيرة بالبيت، كنت أحب منذ صغري القراءة، ولقد نما هذا الحب مع الوقت، بل أستطيع أن أعترف أمامكم الآن بأن الناس الوحيدين الذين

كنت أثق فيهم ثقة عمياء من الجنس البشري هم هؤلاء الكتاب، حتى لو كنت أختلف عنهم في أمور كثيرة، وأدرك عدم قدرتهم على فهم عمق الكائن البشري الملوث بالشر، لكن ما يثير في كتب المبدعين هو ميلهم إلى استغوار هذا الجانب في الإنسان ورغبتهم الملحة في فهم ما يدور في الأعماق السحيقة بداخله، ومعظمهم يتحدث عن ذلك بأريحية، إنَّهم لا يرون الشر غريبًا عن الفطرة البشرية، وهم يتخيلون قصصًا عجيبة تحكي عن قتلة ومجرمين يرتكبون جرائم قتل شنيعة أكثر من تلك التي ارتكبتها، وهم يستطيعون تخيل قتلة مدهشين، يقتلون ببرودة أعصاب ويعيشون في نفس الوقت حياة عادية، ويبررون للقاتل سلوكياته المنحرفة، ويرون أنفسهم فاشلين؛ لأنَّهم يكتبون عن القتل، ولكن لا يجرؤون عليه، طبعًا وجد بعض الكتاب الذين مارسوا القتل في الحروب، لكن هذا أمر آخر، كما يوجد كتاب حوكموا على قتل زوجاتهم، أو اشتبه فيهم ذلك، كتاب يتمتعون بانفصام في الشخصية بحيث يتحدثون عن شخص قاتل غير سويٍّ وشخص طيب سوي يعيشان متجاوران في دواخلهم، مرات أعتبر نفسي من هذه الفئة بالضبط، الشخص المنفصم الذي يحوي شخصين بداخله؛ لأنِّي كنت أشاهد ذلك الشخص مرات في المرآة، لقد أحببت

الكتب لهذا السبب، أو لأنّها الوسيلة الوحيدة التي يحاول فيها البشر إثبات وجودهم بطريقة ذكية وعميقة، وهم يعمقــون من وعي الحياة خارج الصورة الاعتيادية البسيطة التي يعيش بها مختلف الكائنات البشرية فوق الأرض...

الحياة لم تكن لغزًا بالنسبة لي، أما مَن أوجدها؟ ولمـــاذا وُجدت فيها؟ فأنا لم أهتم بمعرفة من وراء مثل هذه المسرحية، والأكيد أنّ هنالك خطأ ما حدث في مكان ما، من أين نأتي؟ لا أدري، الخطأ وقع فوُجدت بشكلي هذا وطريقة تفكيري هاته التي تخرج عن مجتمع القطيع، وتفكر كما يقول ذلـــك اللعين نيتشه **ماوراء الخير والشر**، وهي التي تحدد لنفسها ما هو خير وما هو شر، ومثل ذلك الفيلسوف كنت أرفض كل الثنائيات التي تمارس فينا التمزق، ولكـــن لم أكـــن ضـــدها فبالموجب والسالب توجد الطاقة، وتوجد الحياة، وعنـــدما يتغلب السالب على الموجب يحدث الانفجار، وأظن انفجرت في لحظة الوجود وخرجت سالبًا لا موجبًا، خرجت علـــى هذه الصورة المضادة ولكن هل حقًا هـــي مضـــادة للطبـــع البشري... دعوني أشك.

* * *

عبثًا حاولت أن أجد توازني في مرحلة ما بعد الحـــرب، لقد شعرت كما لو أنَّهم يسلبونني من حقـــي الطبيعـــي في القتل، تمامًا مثلما لو أطلب منكم أن تكفوا فجأة عن ممارسة الجنس، هل تستطيعون ذلك؟ وكيف تســتطيعون تحقيــق توازنكم الداخلي دون إرواء هذا العطش الطبيعـــي فــيكم، أعرف أنه يوجد أصناف من البشر يمارسون الزهد في الجنس والحياة بشكل عام، أظنهم يفعلون ذلك لأنَّهم يخافون مـــن العقوبة التي تنتظرهم في العالم الآخر، أي إنَّهم يجدون ما يبرر لهم امتناعهم، أما أنا الذي لا أؤمن بشيء؛ فكيف تريدوني أن أتوقف عن ممارسة لذتي في الحياة؟! نعم؛ بالفعل أخـــاف أن أعاقب في الحياة؛ لأنِّي من جهتي أستطيع الاستمرار في القتل ولا يوجد مانع أخلاقي أو ديني أو قانوني يعترض علي مـــن ناحيتي الشخصية، لكن سأكون عرضة للمطاردة من طرف كل أجهزة الأمن الظاهرة منها والسريّة، وسأعدم بالشنق، أو في أهون الحالات سيطلقون عليّ بعض الرصاصات فينـــهون حياتي في رمشة عين، فحتمًا لن يقبلوا بشـــخص مثلـــي في مجتمعهم، فأنا من زاويتهم عدو بشري بامتياز، أنا خـــارج الطبيعة، على عكس ما أعتقد في نفسي أني طبيعي للغاية.

لسوء حظي لم أولد في عصر طائفـــة القتلـــة المســـماة بالحشاشين؛ وإلاّ كنت واحدًا منهم، كـــانوا علـــى الأقـــل

سيوفرون لي جوًّا ملائمًا لعيش حياتي كما أرغـــب، وربمـــا سيستفيدون من خبرتي الاحترافية الطويلة في القتل، وسأنفذ لهم كل المهام التي يطلبونها مني بفرح غامر، ومن دون مقابل، لا، لا أحتاج مقابلاً، فأنا لا أقتل من أجل المـــال، أظـــنكم صرتم تعرفونني جيدًا الآن، ولا داعي أن أعيد عليكم كل مرة وصف سبب القتل، أي تلك اللذة الغامضة التي لا توصف، تلك الرعشة السحرية التي تعتريني وتحقق لي أخلـــص المتـــع الروحية والجسدية في الوقت نفسه.

الحق أن حياتي ذبلت فجأة، وخمدت كشجرة تواجـــه تحولات فصل الخريف والشتاء في لحظة واحدة، فلـــم يعـــد عندي الشيء الكثير لأقوم به، شغلت نفسي بلعب الرياضة، صرت أجري كل صباح على الأقل أربعة كيلـــومترات، وفي المساء نفس الشيء، قرأت في هذه الفترة الفارغة من العمـــل عشرات الكتب في الأدب والتاريخ وعلم النفس وشـــاهدت مسلسلات وأفلامًا كثيرة، اكتشفت أن كل هذا لم ينزع عني وساوسي ولم يضعف من رغبتي السريّة في القتل، وهذا مـــا كان يزيد من غضبـــي وهياجي النفسي، لكني لم أقدم على ارتكاب أي جريمة، وكل ما فعلته أني كنـــت أبحـــث عـــن عاهرات أتسلى بهن، قرأت في إحدى الدراسات أن الفعـــل الجنسي يساعد على تهدئة النفس، يخفف من ضغط الهواجس

العصبية المرعبة، فكنت من حين لآخر، أبحث عن عـــاهرة، أختارها بعناية من ملهى ليلي، تكون بشكل معين، غير طويلة وغير قصيرة، ليست سمينة ولا نحيلة، تضع باروكـــة -مـــن الأفضل- لأني أحب الشعر الأصفر المذهب، كنـــت أجـــد ضالتي دائمًا، لم يخب ظني إلا مرات قليلة، المهم أن تملك في جيبك النقود، وتدفعن لهن، أحببت مـــع بعضـــهن اللعـــب الجنسي الخطير، السادية أيضًا، بعضهن يقبلن من أجل المال، أنا لم أكن ساديًا على كل حال، فقط أجرب، أريد أن أختبر ما يسمونه الميولات المنحرفة، ثم كنت أمل بسرعة، لـــذتي لم تكن قويّة في الجنس بل في القتل، هل أقتلهن وأرتاح، أستطيع فعل ذلك، وإرضاء هذا الوحش القاتل بـــداخلي، ولكـــن، كنت متأكدًا أن الجهاز يراقبني، يتابع خطواتي وينتظـــرني في المنعطف، مع أول خطأ ســـيلقى القـــبض علـــيّ أو أُقْتَـــل برصاصات الرقيب، صحيح أني كنت آخذ كل احتياطـــاتي وأراقب كل شاردة وواردة تحدث بالقرب من بيتي، وأغـــير طريقي عدة مرات، ولكن مع ذلك، كنت على دراية تامـــة بقوة الجهاز، الذي حتمًا له مهاراته التي لم أطلع عليها، لهـــم الكثير من المخبرين والمرشدين الذي ينقلون كل مـــا أفعلـــه بالتفاصيل المملة، وبأوصاف دقيقة لا تزويق فيها ولا مجـــاز، لهم خبراء في هذا المجال ولهذا كان عليّ البقـــاء في منطقـــة

الأمان، لا أمارس القتل، بل سأحاول مثلما فعلت في مراهقتي والسنوات الأولى من شبابي التقيد بقوانين المجتمع حتى ينسوني بشكل كامل، ويعتقدون أني تركت ما كنت عليه نهائيًا ولن أعود إليه بتاتًا، هل يمكنني التقيد حقًا بقوانين المجتمع خاصة بعد أن جربت لذة القتل؟ تمنيت ذلك حقًا.

قررت حينها مغادرة مدينة العاصمة، كان ما يزال بحوزتي المال الكافي لأقوم برحلات استكشافية في كامل ربوع الجزائر الكبيرة، لكن لم أفكر في الذهاب إلى مدينة بعيدة، لم يكن عندي ميل للسياحة ولا مشاهدة الأماكن الأثرية أو مخالطة البشر الذين لا يصلحون -في رأيي- إلاَّ لأن أنهي حياتهم البائسة ويتركون هذه الأرض التي لا نفع منها ولا سعادة، ولكن المفاجأة حدثت عندما قررت ذلك جاءتني مكالمة هاتفية غيرت كل مشاريعي تلك، كان الذي طلب لقائي الضابط (ع) في مقهى قرب مسجد كتشاوة، ثم أغلق السماعة دون أن يطمئن على أحوالي، وكما لو أنه يعطيني أوامر مجبر على تنفيذها مهما كانت الظروف.

ذهبت في الغد من تلك المكالمة إلى الموعد، وجدته ينتظرني، كانت تلك أول مرة أشاهده من دون بذلة عسكرية، ما زال نحيلاً كما تركته من سنتين، وبقامته القصيرة نفسها، ويخفي عينيه المرعبتين بنظارات شمسية

سوداء، كان يجول في رأسي سؤال واحد: هل يريـــدونني أن أعود إلى مهنتي؟ وإن كان كذلك لماذا لم يطلب أن يلقاني في الثكنة.

تبددت حيرتي بسرعة وهو يخبرني أن ما سيطلبه مـــني لا علاقة له بالجهاز، ازداد فضولي لمعرفة ماذا يخبـــئ لي هـــذا الرجل الغريب؟ ثم أضاف وقد أخرج سيجارة من علبة أفراز، وراح يمجها كعادته بتوتر وسرعة وهو ينفـــث دخانهـــا في وجهي، حتى سعلت:

- لست معهم الآن، لقد تقاعدت مثلك، لم يعـــودوا بحاجة إلى خدماتي، الحرب انتهت وانتصـــرنا فيهـــا وجاء السلم والرخاء والصمت.
- نعم أعرف هذا.
- أعرف أنك تعرف، فقط نحن كنا نقاتل من أجـــل وطننا، ولم نكن نطلب شيئًا لأنفسنا.
- صحيح سيدي أنا شخصيًّا حتى راتبـــــي كنـــت مستعدًا للاستغناء عليه؛ لأنَّ ما كان يهمني هـــو أن أنجز مهامي بكل احترافية وفعالية.
- للأسف هنالك من اغتنى منهم ونحن خرجنا فقراء.

شعرت أنه من الأحسن تركه يكمل كلامه، بدل الـــرد عليه كل مرة، وأفهم إلى أين يريد الوصول.

- يجب أن نفعل شيئًا.
- هل فكرت في شيء محدد؟
- نعم فكرت ولهذا دعوتك.
- بماذا فكرت سيدي؟
- فكرت أن نعمل لحسابنا.
- كيف ذلك سيدي؟
- هذه الأمور دعها عليّ، ركز أنت على مهمتك التي لن تختلف عما كنت تعمله في السابق، تنفذ ما يطلب منك دون ترك أي دليل على مرورك.
- نعم سيدي...
- سيكون عملنا هذه المرة بمقابل، سنحصل على مال كثير من هذه الخدمات التي سنقدمها لرجال أغنياء، كما تعلم البلد صار يعج بالمليونيرات والمليارديرات بينما منذ عشر سنوات فقط لم نكن نعرف إلا اثنين أو ثلاث في أحسن الأحوال.
- هنالك من استغل الوضع سيدي.
- طبعًا، وهذا ما يجب تصحيحه الآن.
- ومن سنقتل سيدي.
- ستقتل أنت... أنا لست قاتلاً... أنا سأشرف عليك فقط لتقوم بدورك على أكمل وجه.

– نعم سيدي.

ثم قام من مكانه كمن لسعه عقرب، وهو يقول آخـــر وصاياه:

– ستأتيك كالعادة مكالمات ليلية، مع سائق ســـينقلك لمكان المهمة.

و لم يترك لي فرصة أن أشكره وهو ينصـــرف، ويضـــيع وجهه في زحمة الوجوه الكثيرة التي تعج بها منطقـــة جـــامع كتشاوة وساحة الشهداء في ذلك الصباح البارد.

* * *

هكذا انطلقت حياتي من جديد، بعد أن ظننـــت أنـــني سأمر بمرحلة عبور الصحراء، لفترة تدوم أكثر من عقد، لحس الحظ، أنقذني (ع) بذلك الطلب، ورغم أنّـــي لم أشـــاطره موقفه، واحتقرته في داخلي، بعد أن كنت أظنه من فصيلتي، لا يهتم بالمال بقدر ما يهتم بتحقيق لذة خفيّة لا يجهر بها لغير نفسه، لكن كل هذا لم يعد مهمًا، فما دام أعطاني فرصـــتي مرة أخرى لأمارس متعتي المفضلة، فهذا سيعيد لي حيّويتي من جديد، وستنشرح نفسي، وتبتهج كل خلايا روحي، وأعضاء جسمي، وأنا أستعيد في ذاكرتي شريط ساعات المتعة قبـــل وبعد التنفيذ.

لم أتصور أن انتظاري سيطول بعض الشيء، انتظـــرت أكثر من شهر، ثم شهر آخر، ثم ثلاثة أشهر حتى ظننـــت أن السيد (ع) نسيني، أو ألقي عليه القبض بتهمة تكوين فرقـــة قتل، أو لا أدري كيف سيسمون الجريمـــة الـــتي يرتكبـــها، وخفت أن أتصل به فيعلمون بأني من ضمنها، أو ربما هـــم على علم بما سأقوم به، أو وافقت على القيام بها، ولا أدري لماذا كان دائمًا في خيالي أن للجهاز قدرات خارقة للتلصص على الجميع ومعرفة أدق تفاصيل حياتهم، وأن الجهاز يحصن نفسه بهذه الشبكة العنكبوتية التي تمس كل مفاصل المجتمـــع، وأنه قادر في أية لحظة على إلقاء القبض علـــى أي واحـــد ارتكب فعلاً يراه إجراميًا من وجهة نظره، حتى الآن، لم أكن فعلت شيئًا، وربما سيحاسبوني على نيتي في الفعل، وقبـــولي بمقترح السيد (ع) وفي هذه الحالة (ع) هو المدبر والمجـــرم، وربما سأخبرهم من جهتي أني رفضت طلبه عندما عرفت أنه يريد أن يقوم بذلك لمصلحته وليس لمصلحة الوطن، ولكـــن حتمًا سيسألوني لماذا لم أخبر الجهاز فور ما أدركت أنه يخطط لشيء سيئ لا يدخل في مصلحة الوطن وحماية البلاد؟ وهنا، كان عليَّ أن أجد في مخي الذي يشتغل بسرعة الضوء حجة دامغة أدافع بها عن نفسي، حسنًا سأقول إني لم أكن متأكدًا بعد، وكنت أنتظر فقط حين يتصل بـــي ويأمرني بارتكاب

جريمة ما أن أخبر الجهاز حتى لو كان هذا الجهاز هو الـــذي سرحني من مهنتي التي كنت أقوم بها بكل تفانٍ وفعالية، لكن يظل الجهاز هو الجهاز، حامي الحمى للوطن والعبـــاد، ولا يمكن لأي أحد الشك في مصداقيته، أو الخروج عن مبادئـــه وخط سيره العام، سيصدقونني بالتأكيد فهم يملكون مؤهلات عظيمة، وخبرة كبيرة في معرفة من يكـــذب ومـــن يـــتكلم بصدق، لكن بلا شك سيجدون صعوبة في حـــالتي لأني لا أملك تلك الأحاسيس التي يملكونها، أو أشـــعر أني أســـتطيع الكذب بصدق مفرط دون أن يشكوا في للحظـــة واحـــدة، لأنني كنت أملك هذه المؤهلات الطبيعية، وكان عليّ فقـــط حسن الكلام وضبط حركات ملامحي جيدًا، فهم يركـــزون بشكل خاص على طريقة الحديث وتغيرات ملامح الوجـــه، وأنا من هذه الناحية لو حدث لي ذلك في التحقيق أستطيع أن أكون بارعًا للغاية، وهي براعة تلقائيـــة لم أتعلمهـــا في أي مدرسة، ولم اقرأ عنها في كتاب ولم أشاهدها في أي برنامج أو فيلم، فهي ولدت معي تقريبًا، وشكلت جزءًا كاملاً مـــن شخصيتي العامة.

كل هذا المونولوغ التخيلي تلاشى بمجرد أن وصـــلتني أول مكالمة هاتفية، فقمت مسرعًا، وجهزت نفسي كمـــا في السنوات التي شهدت عصري الذهبـــي كقاتـــل محتـــرف،

وخرجت منشدًا السعادة، منشدًا اللذة القصوى، وكل ما فيّ يرتعش.

وجدت السيارة قرب الباب تنتظرني، ركبت من الخلف، لم أتعرف على السائق القديم لقد استبدله بشخص لم يسبق لي العمل معه، أعطاني الملف، فيه صورة من سأقتل، الطريقة التي سأقتل بها، هذا لم يعجبني، في السابق كانت الطريقة من اختصاصي، قال السائق بصوت منخفض: يجب أن تنفذ العملية كما خطط لها. حسنًا سأفعل هذه المرة ما يطلبونه مني ولكن سأحتج عند (ع) على هذه الطريقة المهينة لي.. لا أريد قتلاً سينمائيًّا، أترك الرجل يختنق من الغاز حتى يظهر أنّ الرجل مات بسبب الإهمال فقط، أو بمجرد خلل تقني في أنبوب الغاز. قمت بواجبي وعدت مكفهر الوجه والروح والجسد، لم أشعر بأي متعة في تنفيذ العملية، رغبت أن أهتف لـ (ع) في ذلك الوقت المتأخر من الليل وأشتمه... نعم أشتمه. لم أفعلها من قبل، ولكن الآن لن يمنعني شيء من فعلها هذه المرة فلم يعد ضابطي في الثكنة. لم يعد يملك عليّ أي سلطة تجعلني أخضع وأطيع أوامره دون نقاش. لقد حان الوقت ليعرف من أي نوع بشري أنا.

رغم كل هذا الغضب لم أقل شيئًا في الحقيقة، ليس خوفًا ولكن صبرًا، قلت سأصبر وأنتظر المهمة الثانية وربما الثالثة هي التي ستعرفني بدوري جيدًا.

حياتي ليست سهلة، ليست طبيعية، وعليّ أن أفرح بكل يد مساعدة تقدم لي لتحقيق مسراتي، ولولا السيد (ع) هل كنت سأجد فرصة سانحة لممارسة هوايتي الممتعة والمفضلة، ألم أكن أجهز نفسي للسفر والبحث عن مكان آخر في مدينة أخرى للعيش فيها، لأحمد تدخل السيد (ع) في الوقت المناسب، لقد أنقذ روحي بشكل ما.

لك الحمد يا سيدي العظيم، شكرًا لك يا سيد (ع)، لن تسمع مني هذا الثناء صوتيًّا، ولكن على الأقل أقوله لك في نفسي حتى أثبت على الخط، وحتى لا تضيع مني فرصتي الثمينة من جديد.

أتمنى فقط يا سيدي أن تجد لي أشخاصًا يستحقون أن أقتلهم بخنجري، فذلك هو الذي يثيرني أكثر، ولكنك لا تعرف نفسيتي، ولا تستطيع تفهمي، ولا أستطيع أن أشرح لك ما قد تسميه مرضي، ثم لا يهمك مني إلا أني أنفذ ببراعة ما تأمرني به، وصرت بسببه تحصل على مال وفير، ستصبح غنيًّا في سنة على الأقل، فقط سنة وستصبح مثل المليونيرات الذين يملؤون البلد اليوم، وهم الذين يدفعون لك كي تصفي خصومهم أو أعداءهم.

طلبت مني مرة أن أنفذ عملية خاصة، قلت لك: ما هي؟ قلت لي: الرجل لن يدفع مالاً، فسألتك: ماذا سيدفع إذًا؟

قلت لي: إنه فقير، تعجبت كيف اهتممت بأمره وهو فقير، سألتك إن كان من عائلتك؟ فقلت لي: أعرفه منذ الطفولة، لأول مرة أسمعك تتحدث عن حياتك، وشخص تعرفه منذ طفولتك، هذا كان شيئًا جيدًا، ويعني أنك تثق في، وتستطيع أن تحكي لي حكايتك، حتى لو لم أكن من الفضوليين الذين يهتمون بحكايات وحيوّات غيرهم، لا أهتم إلا بنفسي وهواجسي وملذاتي ومن يحققها لي أمنحه ما يريد. قبلت بالمهمة، لم أشعر بأي عاطفة نحو الفقير الذي أهين في شرفه، ابن شخص نافذ اعتدى على ابنته، هذا كل ما في الأمر وهو يريد الثأر ولجأ لصديق طفولته (ع) كي يساعده على أخذ حقه، تظاهر (ع) بالرفض طبعًا، ولكنه كما أخبرني قرر مساعدته، وقال لي: هذا الكلب يجب أن يقتل حتى يتعلم الدرس سألته: والطريقة رد عليَّ بغضب وبصوت مرتفع على غير عادته: كما تريد هو لك، يستحق أسوأ طرق الموت. ابتهجت، أخيرًا يعطيني الضوء الأخضر لأقتل على طريقتي، بالشكل الذي يريحني، هذا جنون، شيء يفوق الوصف.

قرأت بعد يومين من تمتعي بارتكاب المهمة عنوانًا ورد في الصفحة الأولى من جريدة **الأوطان**: «جريمة بشعة في حق ابن رجل لأعمال الشهير...»، وتعليقًا صغيرًا من تحت «الشاب كان متهمًا بالكثير من الاعتداءات الجنسية على

فتيات فقيرات في سن الورود، ولكن التحقيقات لم تستطع إثبات أي شيء» جيد، لقد خلصتكم من مجرم حقير... هل من مزيد؟!

في تلك السنة قتلت ما يقرب عشرة أشخاص، كل واحد بطريقة مختلفة، ولا أدري لماذا صرت مدمنًا بعد ارتكاب الجريمة قراءة الجرائد لمعرفة ماذا يقال عن هؤلاء الذين خلصت الوجود منهم، لم يكن يعنيني إن كانوا أبرياء أو مجرمين، حقراء أو طيبين، من طبقة غنية أو فقيرة. لا؛ مطلقًا، لم يهمني قطٌ من يكونون بقدر ما كان يهمني وصف الجريمة، بشعة، مثيرة للتقزز، مخيفة، عنيفة، قذرة... كانت تلك الأوصاف هي التي تخلق بداخلي المزيد من الإثارة، وهي التي من شأنها تشجيعي على المزيد من القتل...

كان الجميل في القصة هو أن لا أحد انتبه إلى أن كل هذه الجرائم على تنوعها ارتكبها شخص واحد، مجرم واحد، كان ذلك بالنسبة لي هو الانتصار الحقيقي، أستطيع أن أمارس هوايتي دون أن يزعجني أحد ودون أن يهتدي لوجودي أي شخص.

هذا ما ظننت بالفعل حتى ظهر المحقق هارون... هذا المحقق ذكي ونبيه وينتبه لأبسط الأمور، ولأول مرة وجدت غريمًا من نوع ثقيل... غريم بدأ ينتبه لوجود قاتل من نوع

خاص لا يشبه كل القتلة المجرمين الذين عرفتهم الجزائر من قبل...

أول شيء فعله عندما حقق في مقتل السيد (ح) صاحب شركة استيراد الملابس الجاهزة، وهي قضية أثارت فضول الرأي العام؛ لأنّه عثر عليه مشنوقًا في بيته، ولأنه على ما يبدو كان شخصًا محبوبًا عند عماله في الشركة، وحتى جيرانه تحدثوا عنه بشكل طيب، أجرى المحقق هارون حوارًا صحفيًا نشر جزء منه في الصفحة الأولى من جريدة «**الفضائح**» الأكثر مقروئية في البلاد، حيث رد على سؤال الصحفية بشأن إمكانية التعرف على المجرم قائلاً: «الشيء الذي أستطيع تأكيده أنه مجرم محترف، وهذا شيء نادر في الجزائر، جميع جرائم القتل التي تحدث في بلادنا جرائم انفعالية ليس مخطط لها، أما هذه فهي جريمة خطط لها من طرف عقل بارع في الإجرام، عقل استطاع إخفاء كل الأدلة على مروره، ثم أعطى الانطباع أن السيد (ح) انتحر، بينما لا يوجد أي سبب يجعل السيد (ح) ينتحر، فهو شخص بشوش وطيب ومرح وله ثلاثة أولاد وزوجة جميلة ورائعة، أظن أن القاتل محترف، وسأعمل كل ما بوسعي لمعرفة من يكون...».

-2-

توجد لحظات تمر عليَّ لا أفهمها جيدًا، لحظات مشوشة وتشوش عليَّ تفكيري، أريد أن أقول إنه رغم كل ما سارت عليه حياتي من قبل وحتى الآن وفق خط محدد ومتسلسل من نقطة ألف إلى ياء كانت الأمور جد واضحة بالنسبة لي، أليفة ومنطقية، طبيعية وليس فيها ما يلوث الصورة أو يزعج ورقة الطريق التي وضعتها لنفسي، أو وضعت لي من قوة تتجاوزني، لكن مرات تأتي عليّ تلك اللحظات التي تبدو وكأنها تستقل عني، تخرج عن طبعي ومنطقي في ممارسة الحياة، وتصور الأشياء التي تصدر عني، أو المحيطة بي، تدخلني في حالة أخرى، حالة أيضًا لم أستطع وصفها، ولا التعبير عنها حتى الآن، أشبه بالحالة الصوفية، تلك التي ترتفع فيها نسبة الروح الغامضة والملتبسة إلى أعلى الدرجات فتخرجني فجأة من حالتي الطبيعية التي أعرفها جيدًا، وأفهمها بشكل كامل، وأحاول أن أنسجم معها دون اعتراض أو

تخوف، إلى حالة مغايرة تمامًا لم أجد لها اسمًا أسميها بـــه، أو وصفًا بارعًا يليق بها، أو تعبيرًا دقيقًا يحددها بالصورة الـــتي أبتغي وأريد، الحق أني دائمًا وقفت أمام تلك الحالة مشـــلول التفكير والعقل والإرادة، فأتركها تتسلل إليّ وتـــوثقني بهـــا، وتبصمني بنورها، لا شك أن نورًا ما ذاك الـــذي تبثـــه في روحي، نور شمسي أو قمري مختلف، أو نور مـــن مســـاحة كون لا أعرفها ولا نعرفها جميعًا، ومن ذاك النور تنبث أحلام جديدة وغريبة ومسكونة بحالات وأحاسيس ورؤى وأطياف وصور لن أتمكن حتى من وضعها في قالب لغوي حتى يتمكن البشر من إدراكها؛ لأني شخصيًّا لم أكن أفهم ذلك وكل ما كنت أستطيعه هو أن أتذوقها بقلبـــي وأحســـها بروحـــي ويعجز لساني عن شرحها؛ لهذا قلت: إنَّها أشبه ما تكـــون بالحالة الصوفية التي تتلاقى فيها روح البشر بمـــا يعتبرونـــه الخالق، النور الإلهي، القوة الخارقة التي لا يستطيع الإنســـان رؤيته، أو تمثله، أو فهمه جيدًا إلا كإحساس مكثف، وهـــو شعور وحالة لا تمس جميع الناس، بل هي بركة تنزل على قلة قليلة نادرة، بذلت جهدًا خارقًا لتصل إليه، وعنـــدما تصـــل تذوب بشكل كامل فيه وتغرق في بحيرته الضـــوئية تلـــك، تتلاشى في أطيافه ولا يبقى منك إلا حضور غير مـــادي، أو شيء من هذا القبيل.

كانت تلك اللحظات الخالصة تسمو بروحي إلى مكــان علوي وتتركني أرى الأشياء من زاوية أخرى، أتخيلني ملهمًا من السماء، وبداخلي رسول جاء لينقذ العالم ويخلــص البشــرية بالقتل، نعم بالقتل، وليس بالهداية، لقد وصـــلت البشـــرية إلى نهايتها، وجاء دوري لأنهي وجودكم على طريقتي وبــرغبتي! نعم؛ بالقتل، جئت مبعوثًا من السماء، أو من مكان غير مرئي، أعطاني القوة لكي أمارس عليكم رعبــي وسطوتي وبطشــي، وستشعرون أن موتكم على يدي هو خلاص لكم، هو طريقكم الوحيد الذي ينهي سيرة البشر فوق هــذه الأرض.. في تلــك اللحظات التي تنزل عليّ مثل هذه الخواطر الغامضـــة فتصــفو روحي، وتتصل إلى قمة علوها النوراني يستيقظ فيّ هذا الشعور العميق بالرسولية، أو النبوة، أو التوحد الصوفي، وهذا الإحساس بأن لي دورًا خطيرًا في الحياة، وأني لا أقتل لمجرد تلبيـــة رغبــة مجهولة وعميقة بالقتل في النفس، أو أتلذذ ماديًا ونفسيًا بــذلك الفعل الذي يراه الجميع مشينًا ووحدي من يراه لذيذًا ومــثيرًا لكامل أجزاء روحي، بل لأني رسول مبعوث للقيــام بشــيء كهذا من أجل إنهاء البشرية برمتها، تلك التي فسدت و لم تعــد صالحة لتعمير الأرض، وحسن خلافة الله فيها... لكنَّها لحظات تومض كالبرق وتنمحي في سرعة رف الجفن، أشعر بها فتعطيني دافعًا روحيًا لكي أستمر في مهمتي أو مهنتي ثم تتلاشــى مــن

داخلي وأعود إلى حالي الأول، حياتي الحقيقية، قاتل يحقق لذته بالقتل، لا أقل ولا أكثر، مثلما يحقق شخص ما لذته في جمع المال دون أن يكترث بباقي الملذات، فهنالك دائمًا شيء يغلب باقي الأشياء، وصوت هادر يسحق باقي الأصوات، وقوة واحدة في النفس تهزم كل الجهات...

رغم ذكاء وحنكة ذلك المحقق هارون الذي جعلني أتوقف عن القتل فترة طويلة حتى لا ينكشف أمري، وبطلب من السيد (ع) أن نوقف عملياتنا بعض الوقت، وهو مرتبك وحائر، فسألته عن السبب فرد عليَّ: هذا المحقق يبدو أنَّه درس في مدرسة أمريكية للتحقيق الجنائي؛ فلقد سمعت أنَّه طلب من الجهاز منحه معلومات عن أعضاء فرقة الموت فترة التسعينيات، استغربت بدوري كيف تكهَّن بأنَّ القاتل قد يكون من المؤسسة الأمنية، لكن السيد (ع) طمأنني بسرعة، وهو يؤكد لي أن فرقة القتلة المحترفين غير موجودة في أي أرشيف، وليس لها أي أثر، والجهاز أحرق كل أوراقها حتى غير الرسمية، يعني لن يجد المحقق هارون أي شيء فيما يخصنا وسيفشل حتمًا في تحقيقه، ولكن علينا الحيطة والحذر مع ذلك والتوقف عن العمل، وأخبرني أنَّنا بفعل ما قمت به تحصلنا على مبالغ مالية كبيرة، سيصلني جزء منها هذا الأسبوع، وبالرغم من عدم اهتمامي بالمال؛ إلاَّ أنَّني كنت أفكر بما أنَّ مهمتي ستتوقف وقتًا طويلاً بعض الشيء أن

أحقق أمنية السفر وترك مدينة العاصمة إلى مدينة قريبة، ووقع اختياري على تيزي وزو؛ فلقد زرتها مرتين، و لم أقتل فيها شخصًا واحدًا، وفي كل مرة أزورها كنت أعجب بها كمدينة أشعر فيها أنِّي غريب عن أهلها، ولا يربطني بهم أي رابط... وهذه الغربة، أو الغرابة كانت ممتعة لي أكثر ممَّا تتصورون...

* * *

استأجرت فيلا صغيرة من طابق واحد، مع حديقة صغيرة، صاحبتها امرأة تعيش بفرنسا، كما أخبرني صاحب الوكالة العقارية وهو شاب من بجاية، ودود ويتحدث بعربية سليمة، و لم يستعمل معي حتى كلمة واحدة بالأمازيغية، وعندما سألني هل حصلت على عقد عمل بتيزي... أشبعت فضوله بكذبة صغيرة: لا عندي مشروع كتابة رواية... أظن أنه لم يفهم كلامي، أو استغرب منه... فكيف أدفع مبلغًا خياليًا مقابل تأجير هذا البيت فقط للكتابة... ثم تركني وشأني وقد ترك لي رقم هاتفه إن احتجت أي شيء منه... شكرته بدوري، لقد تصرفت دون شعور مني بشكل طبيعي وكأني إنسان يشبه باقي البشر، يستطيع أن يكون لطيفًا وحلو المعشر، ربما كنت أبحث عن قناع مناسب طوال هذه الفترة، وبدا لي قناع الكاتب الذي يريد كتابة رواية شيئًا

مثيرًا، فأنا كما أخبرتكم سابقًا كنت مدمنًا على قراءة الرواية، ومعجبًا أشد الإعجاب بعوالم الروائيين، خاصة الذين يكتبون روايات بوليسية أو روايات سوداء بشكل عام حتى لو لم تكن بوليسية، أي أولئك الذين يفهمون عالمي الحقيقي، ومن خلاله يفسرون طبيعة البشر السيئة من الداخل... لهذا كان أول شيء قمت به بعد شراء ذخيرتي من الأكل والشرب زيارة المكتبات التي استطعت العثور عليها.

زرت حتى مكتبات الكتب المستعملة والحق أني وجدت فيها أكثر ما يعجبني من روايات وكتب فلسفة ودراسات عن الإجرام والمجرمين، كنت سعيدًا بتلك العلبة الكرتونية الكبيرة التي ملأتها كتبًا وأحضرتها معي للبيت، وقلت سأتفرغ لذلك، لا شيء سيعكر مزاجي وسأخدر لزمن محدود شخص القاتل فيَّ، وربما سأطلق العنان لشخصي الجديد المتمثل في الكاتب الروائي كي يبرز...

كل ليلة كنت أقضيها مع كتاب وزجاجة نبيذ أحمر معتق، تعلمت الشرب في تلك الفترة التي تعرفت فيها على سِمْسِمْ لا أدري أين هي الآن؟ وماذا حدث لها، لقد أنقذتها الأقدار من يديّ هاتين، أو ربما غريزة البقاء عندها كانت عالية وفوق مستوى باقي البشر، وإلاَّ ما كانت لتخرج من بيتي في ذلك اليوم سالمة غانمة... هي التي أدخلتني عالم النبيذ

والمشروبات الروحية الذي لم أغرق فيه بكليتي ولكن شعرت بعذوبته مع الوقت، حتى صرت أحب شربه، في النهاية كان يستطيع تخفيف صداعي لوقت محدد، ورفع رقابة العقل على ذهني، وتركي أسبح في الخيال، وحتى حالاتي الصوفية التي تحدثت لكم عنها كانت تصاحب عادة سكري، ولهذا لم أكن أثق فيها كثيرًا، رغم أنّها كانت على قدر كبير من الكثافة بحيث تشعرني حقًا بأني مبعوث سماوي إلى الأرض، ومن يدري ربما هربت روحي من الجحيم، وجاءت إلى الأرض وتلبستني أنا، وهي تقوم بدورها كما يجب؛ ولهذا لا تهتز فيَّ شعرة شفقة أو رحمة على كل من أقتلهم، بل يُحدِث بداخلي القتل سعادة منقطعة النظير، وتترك بعدها ما يشبه أثر الحب في لحظة انفجاره الأعمى، وهيجه الأقصى. إنها أمور لا يمكن تفسيرها إلا بطريقة ما ورائية أو ميتافيزيقية؛ لأنَّها تتجاوز الحد البشري وترفض منطقه، وتشكل في ذاتها منطقًا ما ورائيًا، يلتقي في روح واحدة الجحيم والنعيم...

دونت بعض الملاحظات على هامش الروايات البوليسية التي قرأتها ومعظمها روايات من أوروبا الشمالية، يبدو أنَّهم أصبحوا هم الأكثر خبرة في هذا الميدان، ونجحوا نجاحًا كبيرًا في سوق المبيعات، ولكن لم أجد عندهم أشياء خارقة مثل تلك التي وجدتها في رواية دوستويفسكي الأولى التي قرأتها

الجريمة والعقاب، والتي جعلتني أخلص أن هذا الكاتب لو لم يصبح روائيًا لكان مجرمًا حقيقيًّا وناجحًا، ولدخل التاريخ من هذا الباب، لكن لسوء حظه نجح في الكتابة الروائية، وربما كانت لذته فيها أكبر من لذة الجرم والجريمة... لا بُدَّ -كما أخبرتكم من قبل- أنه يوجد في نفس كل إنسان شيء ما قويّ يستطيع سحق باقي الأشياء.

ملاحظاتي كانت نقدية على تلك الروايات، مثل أنّها تركز على الصراع بين الخير والشر في نفس الإنسان، وهي تميل إلى فكرة أنّ الشر أقوى، لكن الخير يستطيع الانتصار، أو هو ينتصر في غالب الأحيان، ربما إرضاءً للقراء الذين يرغبون قراءة نهايات إيجابية، وتناسب أرواحهم التي يزعمون أنها طيبة بالكامل...

اعتبرت هذا سخرية كاملة من القتلة الحقيقيين الذين لا يشعرون بمثل هذا الصراع فالخير والشر كلمتان فارغتان ويمكن التدليل بالفيلسوف نيتشه على بطلانهما بالتأكيد... لكن لا يهم... كانت الروايات محكمة البناء والصنع، وهذا هو المهم -ربما بالنسبة للروائي- أن يكتب رواية تشد القارئ من الأول إلى الآخر.

ملاحظتي الثانية والتي أعتبرها إيجابية: أن القاتل قد يكون رجل أمن، أو مفتش شرطة أو ضابطًا عسكريًّا، أو رجل مخابرات، وهذا يرضي القراء بشكل ما؛ لأنَّه يشعرهم أن

هؤلاء الذين يدعون أنّهم رمز القانون والحق والعدالة قد يأتي الشر منهم، وبذلك ينتقم الروائي لهؤلاء القراء من رموز الأمن بشكل تعويضي في رواية خيالية

بعض الروايات تعتمد على وقائع حقيقية، وهذه أعجبتني أكثر؛ لأنّها وقعت بالفعل، وهي تبدو أكثر خيالية من الروايات المتخيلة، هنا يتصرف الكاتب فقط في إعادة بناء الوقائع والحكاية وإضفاء جانب من التشويق والإثارة لا غير...

كنت سعيدًا بمثل هذه اللعبة، قراءة الروايات وتدوين ملاحظاتي السلبية والإيجابية على السواء، أي ما هو لها وما هو عليها، ليس فقط على الروايات التي كانت هي قراءتي الأولى المفضلة، ولكن حتى على كتب التحليل النفسي والفلسفة والفكر... قضيت أوقاتًا مريحة مع كل ذلك العالم الورقي الذي أعدت اكتشافه من جديد في بيتي الجديد بتيزي وزو.

لم أتصور أن كل ذلك سيعرفني بامرأة... أو سيقربني من امرأة.

أقول ذلك وأنا أرتعش... امرأة غريبة، أو أنا الذي أحسها غريبة... بدا الأمر في تلك البرهة من الزمن وكأنه انخطاف غير متوقع، مفاجئ وغامض، ومشوش، وساحر، ومربك، ومثير، أنا الذي إلى وقت طويل كنت أعتبر نفسي بلا مشاعر... بلا أحاسيس... بلا إمكانية ولو في الحلم أو

الخيال أن أقع في الحب... حتى أنا بيني وبين نفسي كنت أقول هذا مستحيل... نعم مستحيل...

***

المستحيل صار حقيقة، لكن دعوني أشرح لكم نظريتي في الحب، إنه ليس حبًّا كما هو الحب بين رجل وامرأة في الحياة العامة يلتقيان ويخفق قلب كل واحد إلى الآخر، ويتقاربان ويتوحدان ويعيشان مع بعض ويتزوجان وينجبان أطفالاً ويكبران معًا، ثم يفترقان بفعل الطلاق أو الموت كما هي طبيعة الحياة العادية لمختلف بني البشر.

إنَّه حب من نوع خاص، حب ليس فيه مشروع مستقبل ولا مشروع لحظة تجمع ثم تعبر، حب شبيه بمشاعر القرابة الروحية، عندما تجد شخصًا تشترك معه في شيء ما، وتشعر أنَّه الوحيد في هذا الكون الذي يملك تلك الخاصية، الشيء الذي يحرك فيك شعورًا بالحب، حب يجذبك نحوه وتريد أن تفصح له عنه... وأن يتفهمك ويبادلك شيئًا منه، ثم لا شيء آخر، لم أكن أرغب فيها جنسيًّا، مع أنَّها امرأة فاتنة، من ناحية الجسد، أما الروح ففيها نقاط مبهمة كأن روحها مسكونة بالشياطين، أمَّا الناحية الجنسية فلقد جربت ذلك مع عشرات المومسات وأفضى كل ذلك إلى إحساس سيئ

بمعاشرة غير مرغوب فيها، أو كانت تجعلني أنظر لهن على أهن لا يصلحن لروح سوداوية مثل روحي، فالجسد ليس إلاَّ وعاء لا غير، وهو يحملنا حتى يتعب فنتركه ونعود من حيث جئنا، شخصيًّا ليس لي اعتقاد في الذهاب إلى مكان بعينه، وأحس أنَّ العدم هو الذي سيبتلعني، أما في حالة وجود جحيم في مكان ما من السماء؛ فذلك سيكون مأواي الأخير بالتأكيد...

***

من الملل مرات كنت أغادر البيت أتجول في الساحة وأعبر بعض الأحياء الجانبية الصغيرة، لا شيء يستفز أو يثير، ثم شاهدت مرة مكتبة كبيرة للمطالعة الداخلية، فتقدمت نحوها بخطى بطيئة، لم يكن هنالك ما يستعجلني على السرعة، وجدت المكتبة شبه فارغة، سألت السيدة العجوز والتي كانت منهمكة في طرز صدرية من الصوف في المكتب الأمامي: هل يمكنني الدخول؟ فردت عليَّ بسؤال آخر: إن كنت تملك بطاقة نعم، أجبت على الفور: لا، ردت دون أن ترفع نظرها نحوي، تستطيع الدخول لا أحد يأتي للمكتبة منذ زمن بعيد، شكرتها ودخلت إلى القاعة الكبيرة التي امتلأت جدرانها حتى السقف برفوف الكتب، وفي الوسط عشرات

الطاولات والكراسي الفارغـــة، جلســـت علـــى إحـــدى الطاولات، وبقيت أتملى مشهد الكتب المعلقة في الرفـــوف وكأنها طيور لا تستطيع التحليق، في تلك اللحظـــة دخلـــت امرأة في العقد الثالث، بمعطف قطني أسود اللون وهي تطوق رقبتها بشال أبيض اللون، أما شعرها الأسود فتركته ينساب على كتفيها، وعندما شاهدتني سلمت عليّ بصوت خافـــت فرديت عليها التحية، ثم سألتني إن كنت هنا منذ فترة طويلة، فنفيت، فابتسمت لي من جديد، وقالت وكأنها تعرفني مـــن قبل: دائمًا يتأخر طلبتي عن موعدي معهم، اعتبرت كلامها استدراجًا لي للحديث سألتها أين تـــدرس؟ أجابـــت وقـــد تقدمت مني بعض الأمتار هذه المرة وراحت تنزع معطفهـــا الصوفي الأســـود في الطريـــق: في الجامعـــة، أدرس الأدب العربـــي. قلت: «آه جيد... الأدب شيء جيد». تقـــدمت حتى لم يعد يفصلني عنها إلا طاولة واحدة، وســـألتني: هـــل تحب الأدب؟ أجبت بابتسامة خفيفة: نعم كثيرًا. وضـــعت معطفها فوق طاولتي ثم جلست على الكرسي الذي يقـــابلني مباشرة، ساعدني ذلك على تأملها جيدًا، وإن تعمـــدت ألا أخيفها بنظراتي المتفحصة، لقد تعلمت مع تجاربـــي في الحياة ألا أنظر إلا بطريقة خاصة إلى وجوه الآخرين واقرؤها جيدًا، ولكن دون أن يشعر الطرف الذي أنظر إليه أنـــني أتصـــفح

وجهه وأحاول فهم ما يختفي وراءه. سألتني مبتسمة: معذرة لم أعرف بنفسي اسمي سميرة قطاش. تلعثم لساني فجأة وهي تقدم لي يدها لمصافحتي، أخرجت يدي من جيب جـــاكتتي الجلدية وصافحتها بود، وقلت لها: وأنا سليمان ناصر. كان اسمًا اخترعته في تلك اللحظة. لم أكن أرغب أن تعرف مـــن أكون على حقيقتي، حتى لو بدت لي امرأة لطيفة، ومرحـــة ومتفتحة ولا تشعر بضيق من محادثة غريب تلقاه لأول مرة.

- وماذا تعمل في الحياة سيد سليمان؟
- كاتب رواية.
- حقًّا... هذا رائع. هل نشرت شيئًا؟
- لا، للأسف ليس بعد، جئت إلى تيزي وزو لكتابـــة هذه الرواية.
- هل يمكنني أن أعرف ما هو موضوعها؟
- هي مجرد فكرة مشوشة في رأسي الآن، فما زلت في مرحلة تدوين ملاحظاتي وأفكر في خطة الكتابة و...
- نعم فهمت، رغـــم أني أدرس الأدب العربـــــي، وانتقلت من جامعة الجزائر إلى جامعة تيـــزي منـــذ سنتين تقريبًا، وأعرف الكثير من أصدقائي الأساتذة الذين يدرسون الأدب ويعشقونه لكني لم ألتقِ يومًا في حياتي بكاتب روائي واحد.

لم أعرف بما أعلق على كلامها، و لم أفهم لماذا تقبلت فكرة كوني كاتبًا بهذه السهولة، هل هي ساذجة أم طيبة إلى هذا الحد؟ ثم ما الذي يشعرني في داخلي أنّها عكس ما تقول، وتظهره للآخرين، كان فيها شيء من السوداوية والحزن والتشاؤم الذي يظهر في الملامح، والتوتر الذي يبرز عندما تتكلم، حتى لو أعطت انطباعًا أنها امرأة سعيدة ومنتعشة في حياتها، لكن بالنسبة لعين مدققة مثل عيني بدت لي عكس ذلك وأحسست أن لها حتى رغبات انتحارية.

إنَّ هذه الأمور لا تغيب عن خاطر قاتل عندما يحس بها تصله من روح تجلس غير بعيد عنه، بل القاتل أول ما يستشعره هو روح الشخص قبل حتى إدراك شكله الخارجي كاملاً...

فكرت أن أستأذنها وأنصرف حينها؛ خوفًا أن ينشط فجأة خيال القاتل بداخلي ويفكر في وضع حد لهذه المرأة التي دون سابق إنذار تقربت مني بمحض إرادتها ودخلت معي في حوار لم ترغب أن ينتهي.

قالت لي وهي تراني أنظر إلى ساعتي:

– هل في انتظارك شيء تعمله؟

– لا، أبدًا، هي عادة قديمة أن أنظر إلى الساعة.

– أتمنى أني لم أضايقك.

- لا بالعكس سعيد بالحديث معك، والتعرف عليك.
- لم يأتِ طلبتي على كل حال مع أنّي أحضرت لهم بعض الروايات لقراءتها في بيوتهم... شباب اليوم لا يحبون الكتب ويفضلون العالم الافتراضي.

هززت رأسي موافقًا، بينما أضافت هي، دون أن تكترث بما أفعل:

- بعد سنتين من إقامتي بتيزي وزو إلاّ أنّي أشعر أنّي دائمًا غريبة.
- غريبة من أي ناحية؟
- غريبة عن سكان المدينة وأجوائها، مع أنّي تأقلمت وأستطيع التحدث بلغتهم
- هذا جيد... لكن ما مصدر الغربة بالضبط؟
- الشعور بالخواء.
- الخواء!
- نعم، هذا الإحساس أن لا شيء يملأ قلبك، ويسعدك روحك في الحياة.
- ألا يملأ العمل وقتك؟

صمتت لبرهة وسرحت بعينيها ناحية النافذة الوحيدة التي تطل على الخارج ثم قالت:

- تعرف! كنت أريد أن أكون باحثة جيدة فيما سبق، أخصص كل جهدي للبحوث الأكاديمية، وأساعد بثقافتي على تغيير هذا البلد إلى الأحسن، قدر ما أستطيعه طبعًا، لكنني فشلت داخليًا، الحياة في النهاية معقدة.
- كل شيء معقد في الحياة.
- نعم نتمنى أشياء كثيرة في الحياة، ونتعب من أجل الوصول إليها ثم لا نصل، أو حتى لو وصلنا النتيجة واحدة. الخواء.
- ماذا تقصدين بالخواء بالضبط؟
- أظنك كروائي يمكنك أن تشعر بذلك، عندما تنتهي من كتابة رواية تستنزف كل طاقتك، عندما تحب امرأة حبا قويًا يستنزف كل مشاعرك، عندما ينتهي كل ذلك تأتي مرحلة الخواء، وهي مرحلة تدمير نفسي مخيفة، تريد أن ترمي بنفسك من أعلى جسر تراه أمامك، أو تلقي بنفسك فوق سكة حديد ليدهسك أول قطار يمر بالصدفة...
- هذا مخيف.
- نعم مخيف للغاية، ومع ذلك هذا هو إحساسي الآن.
- كيف وصلت إلى هذا الإحساس المرعب؟

- ياه، لو حكيت لك كيف وصلت سآخذ وقتًا طويلاً من حياتك.

- عندي كل الوقت للسماع...

ولأنَّها لم ترد عليّ بسرعة، قلت من جديد:

- أدرك أني أطلب شيئًا غريبًا نوعًا ما لكن كم أتمنى أن تقبلي دعوتي إلى البيت.

أجابتني مندهشة:

- الآن تقصد.

- نعم، لقد استأجرت بيتًا غير بعيد عن هذا المكان، ويمكنني أن أحضر لك عشاءً لذيذًا، وبعدها نتحدث على راحتنا.

شكرتني على الدعوة، واعتذرت عن القبول، لكنَّها قدمت لي رقم هاتفها على أمل أن نلتقي مرة ثانية، ونتحدث في حياهًا بالتفاصيل المملة، وعن حياتي بالقدر الذي أسمح به.

قامت من مجلسها وهي تودعني بعينين مشرقتين، تعبيرًا عن فرح ما بحديثنا، وارتدت معطفها الصوفي الأسود على مهل، لكن ظلت تطفو على وجهها سحابة سوداء، أو ربما أنا تخيلت ذلك، ثم غادرتني مبتسمة.

* * *

لم أتصور نفسي بتلك الهشاشة ليلتها، وأنا أستحضر حديثي مع سميرة قطاش، وأسأل بحيرة واستغراب عن الشيء الذي يحدث لي من الداخل، ولماذا أفكر في تلك المرأة، ثم اهتديت إلى السبب الوحيد المقنع، السبب الوحيد الذي جعلني أنجذب نحوها، إنها عكس كل الناس الذين عرفتهم تريد أن تموت، أو وصلت إلى هذه الحالة، وأنني ربما لا شعوريًّا إن كان هذا مطلبها فأستطيع أن أحققه لها، من دون أن ترمي بنفسها على سكة حديدية فيدهسها قطار، أو من جسر شاهق وتتفجر على الأرض، لكن مع ذلك، لم يكن عندي نحوها أي رغبة في القتل، ربما في تلك اللحظة كنت بحاجة إلى صداقة ما، مع شخص لا يشبهني تمامًا ولكن أشعر مع ذلك بقرابة روحية تجذبني إليه، في جانب ما من نفسه، يشبه جانبي النفسي الأسود والمهين عليّ بقوة.

طلبتها في الهاتف والساعة تجاوزت منتصف الليل، لم تقل لي تأخر الوقت بل:

- كنت أنتظر مكالمتك.
- لقد استحوذت على تفكيري طوال هذا المساء وشعرت برغبة أن أعرفك أكثر.
- هل تعرف عندما عدت إلى هذه الشقة الصغيرة التي استأجرها ندمت أني لم استجب لدعوتك.

- يمكننا أن نفعل هذا غدًا إن شئت.
- نعم أشاء، بل سأكون سعيدة بالجلوس والحديث معك، تبدو لي شخصًا مختلفًا عن كل الناس الذين عرفتهم...

لم أجد ما أقوله حينها، فصمت، بقيت أفكر في العبارة الأخيرة، وماذا تقصد، هل نقلت لها إحساسي السوداوي أنا أيضًا، هل شعرت بي من الداخل كما شعرت أنا بها تمامًا، لا شك أنَّ شيئًا من هذا القبيل حدث بيننا، وخيط سريّ وحَّدنا. فجأة سمعت صوتها يسأل أين ذهبت فأجبت:

- معك... كنت أفكر في كلماتك.
- بل قل إحساسي... لأنَّ ما وصلني منك هو إحساس غريب، ومثير ومدهش.
- نفس ما شعرت به نحوك.
- أظن أني أقل تعقيدًا منك، تبدو إنسانًا مجربًا للحياة، ومدركًا لأسرارها الأكثر غموضًا، وعميقًا في نظرتك، وقويًّا في كلماتك، ومرعبًا في حصارك لمن يجتمع بك... حقًّا تركت أثرًا لا أعرف كيف أصفه لك...

ولأني لم أجد كلمات أرد بها في ذلك الحين أضافت:

- غدًا سنلتقي وأحدثك عن نفسي ولماذا تهيمن عليّ

فكرة الموت هذه الأيام بالرغم من أني أبدو ظاهريًّا متماسكة وأقوم بواجباتي المهنية على أكمل وجه، ولا أظهر لأي أحد حالة ضعفي وخوائي الداخلي إلا أنّني معك أحسست أنك قادر على اختراقي، وكأنك تفحصني بمجهر خاص تملكه وحدك، هل أنت متأكد أنك إنسان طبيعي مثلنا؟

انفجرت مقهقهًا، وكانت تلك هي أول مرة اضحك فيها بذلك الشكل، وقلت مجيبًا:

- أتمنى أن تخبريني أنت عن ذلك.
- غدًا سأخبرك بالتأكيد.

ثم تمنت لي ليلة سعيدة، وتركتني أفكر في كلماتها ومعانيها، ولم أنم إلاّ في وقت متأخر من الصباح، لقد أشعلت جذوة نارية في مكان ما من القلب.

ستضحكون لو قلت لكم أصبحت قاتلاً عاطفيًّا بعض الشيء، حتى لا أبالغ في وصف مشاعري نحو سميرة قطاش، ولكن في الغد عندما جاءتني للبيت، شعرت بعاطفة حب ما تسري كما الدماء في شراييني، ولكن ما لم أكن أنتظره طبعًا وأنا أحس بكل هذه العاطفة تغلي وتلتهب فجأة أن تخبرني بأنها في أعماقها تحب شخصًا حبًّا مستحيلاً، وعندما أسألها ما هو الحب المستحيل بالنسبة لها؟ ترد أنه يحب أخرى، هذا كل

ما في الأمر، وهذا سبب ربما كل مشاعرها السيئة التي تشعر بها، كاد يتبخر أملي الروحي الذي علقته عليها فجأة لولا أنها أكملت الحديث:

«هذا الرجل الذي اسمه صادق سعيد -يا للاسم القبيح، كم أكره الناس الذي يسمون أبناءهم على السعادة؛ فهم ينذرونهم للشقاء بالتأكيد- كان حبي الكبير والحقيقي، والسبب أنه كان نبيلاً ونظيفًا في كل شيء، في مواقفه وشخصه وحياته، وحتى نضاله السياسي والذي عرضه دائمًا لمشاكل مع زبانية النظام وعبيده، كنت أحب فيه شجاعته الفكرية ومعارفه الواسعة، إنسان مجتهد وكفؤ، وأيضًا وسيم لدرجة يغري النساء جميعهن بالوقوع في حبه، ولهذا كنت سيئة الحظ أن عشقته، بعد تجربة حب أولى تافهة أوقفتها من جهتي قبل أن تتحول إلى مؤسسة زواج فاشلة».

حتى هذه اللحظة كان حديثها مملاً بالنسبة لي، فهي تتحدث كامرأة عادية، بسيطة تعاني من ويلات حب من طرف واحد، ومهما كان هذا الحبيب حسبها متعلمًا ومثقفًا ووسيمًا فهذه الأمور ليست ذات أهمية في تفكيري ولكن تركتها تبوح بما في داخلها وتتقيأ ما يعتريها من قروح وجروح.

واصلت الحديث:

«لم يلتفت إليّ قط من زاوية الحب، كانت علاقته بـــي مبنية على الاحترام والزمالة المهنية والتشجيع المتواصـــل كـــي أحقق ما أريد، والتوجيه السياسي إلى حد ما كي لا أكون في جهة ما يسميهم أعداء الشعب، وكان يحب امرأة اسمها سارة حمادي، وهي فتاة رائعة بالتأكيد، من حيث الجمال الشـــكلي والقوة الروحية، كنت أحسدها على ثقتها بنفســـها، والـــتي استمدهّا من عائلتها بالتأكيد، كانت أمها روسية ووالدها من الجنوب، ذلك المزيج الغريب بين الشمال والجنوب أعطى امرأة بشكل مختلف وصورة جذابة وشخصية قويّة، صـــحيح أني لم أتحدث معها كثيرًا، وكنت كلما تحدثت معها أزداد يأسًا من أن يحبني صادق يومًا، وإن أدركت بشكل حدســـي نقطـــة ضعفها الوحيدة، والتي رغم ذلك لا تظهر عليها كثيرًا عنـــدما تتحدث معها، وهي تخفيها بحيث لا تشعر بها أحـــدًا آخـــر غيرها، وفي تلك المساحة حاولت أن أتسلل، كانت تلك هي فرصتي الوحيدة لأقتحم الميدان لأول مرة، وأشعر هذا الصادق أني موجودة أنا أيضًا، ويجب أن يأخذني بعين الاعتبـــار، ولا يتركني لمشاعري النارية أحترق بها لوحدي...».

كاد يصيبني التثاؤب والرغبة في النوم من تلك الحكايـــة التي بدت لي غير مسلية ولا ممتعة، ولكن صبرت حتى أعرف النهاية.

«للصادق صديق عزيز عليه اسمه فاروق طيبي كان يعرفه منذ سنته الأولى في الجامعة، وهو صديقه الفكري الأول تقريبًا، ولقد حاولت أن أثير اهتمامه بي، ولم يكن ينقصني الذكاء الأنثوي لتحريك مشاعره نحوي، كنت أريد من خلال علاقتي به أن أحرك مشاعر الصادق نحوي، دون جدوى، أدركت حينها أنه قاومني بكل رجولة، حبًّا لحبيبته سارة، من جهة احترمت فيه ذلك، ومن جهة أخرى لعنته وأقسمت أن أنتقم منه...».

عندما ذكرت الانتقام استيقظت بعض الشيء، وحاولت أن أركز من جديد معها:

«لقد استدرجته إلى أن يمارس الحب معي في سيارته» وحكت لي التفاصيل التي لم تهمني كثيرًا إلى أن قالت:

«لقد فعل معي الحب دون أن يتحرك فيه الحب.. لقد كرهته، وتمنيت لو أستطيع قتله».

قلت متسائلاً:

- إلى هذا الحد؟
- مرات القتل ينقذنا من الهلاك وحدنا.
- وماذا كان سيحدث لو قتلته؟
- أنتحر بعدها... هكذا نذهب معًا إلى الجحيم.
- ولكنك لم تفعلي شيئًا؟

- لا، لم أفعل، من أين لي القوة لأفعل أمرًا كهذا. كل ما استطعت فعله أن جئت إلى تيزي بحثًا عن حياة أخرى.
- وصديقه الروحي ماذا حدث له؟
- بعد مغامرات جسدية طردته من حياتي.
- والسبب...
- كان يدرك أني أفعل معه ما أفعل فقط انتقامًا من صادق، ومع ذلك كان يقبل هذه المهانة لنفسه...
- لماذا مهانة؟ لماذا لا تعتقدين أنه كان يحبك؟
- لا أدري، ربما أنا غاضبة من نفسي أني فعلت أشياء كهذه سيئة للغاية.
- هل هذا هو سبب كل إحباطك وخوائك؟
- نعم في جزء منه، لقد ارتكبت حماقات وشرورًا كثيرة، وشاهدت حماقات، وشرورًا عديدة تحدث أمامي، وتُسقط أناسًا كثيرين عرفتهم في حالات ذبول ويأس، وتنتهي حياتهم بألم. أشعر أنّ الحياة مجرد فخ سيئ للبشر، ولا يستطيع النجاة منها إلا قلة، أو لا أحد ينجو من ذلك الفخ، كلنا نتعذب فيها ثم نموت. فما الجدوى؟

استرسلت في هذا الحديث عن قسوة الحياة والناس الذين يسقطون في الطريق نحو أحلامهم أو أوهامهم، وقسوة البشر على بعضهم، وكيف أنّنا في الحقيقة حيوانات مفترسة وليس فينا من الإنسانية إلاّ الاسم، وكل ما يحددنا كنوع بشري هو رغبة الافتراس وحب البقاء للبقاء، أما القيم الحقيقية فهي مجرد شعارات نرفعها عاليًا في السماء كي ندهسها بأقدامنا لاحقًا على الأرض ونقول لقد كانت مجرد توهمات لا تصلح لنا.

إذن هذه هي الحياة أنا عرفتها منذ صغري بهذا الشكل، ولم أحتج لتجارب شعورية لأدرك أنّها نفق أسود تدخله فلا تخرج منه، وأن ضوءًا آخر النفق ليس إلا الموت.

- ماذا تريدين الآن؟
- ماذا أريد؟
- نعم أريد مساعدتك.
- أريد أن يختفي كل هؤلاء الرجال الذين عرفتهم من حياتي، أو من الحياة نفسها... أريد أن أبدأ من الصفر مع رجل واحد مختلف يفهم عميقًا أن الحياة ليس فيها الخير من جهة والشر من جهة أخرى وهما يتصارعان أبديًّا، بل أن نستمر في البقاء حتى نغادر بلا رغبة في العودة مرة أخرى، ولكن هذا حلم

خرافي، ما أريده الآن هو أن أنسى كـــل هـــذا، أن أموت، ربما الموت هو الذي يحقق وعده الحق، ينهي الصراع ويقضي على الأوهام كلها...

- يمكنني أن أقتل كل هؤلاء الرجال الذين ذكرت.

انفجرت ضاحكة رغم ما كان يظهر عليهـــا مـــن أرق البوح، وتعب اللحظة المستنزفة، وقالت لي:

- يا ريت.. لكن القتل...
- ما به القتل؟
- فكرة نتكلم عنها أكثر ممَّا نرغب في تنفيذها.
- أعرف.. ربما هذا هو الفرق بـــين النـــاس وقاتـــل حقيقي.
- لا تمزح بهذا الشكل أرجوك...
- لا أريد أن أفزعك. أريدك أن تضحكي الآن. منـــذ جئت وأنت مغمومة، يائسة بائسة حزينة تلـــوكين ذكريات جارحة. حان الوقت لتنسي كـــل هـــذا، وتبدئين صفحتك الجديدة.
- هل تعدني بأن تساعدني في ذلك.
- وعد حر.

تقدمت مني وقبلتني على شفتيّ، قبلة وديعة، خافتة ولكن شاعرية، ناعمة، جعلتني أطوقها بذراعي، أغرق في شـــفتيها

تقبيلاً، وأنزل بأصابع يدي إلى فتحة صدرها، وأمسك نهديها بقوة، فأثير فيها شهقة، وتثير فيّ رجفة، فأنزع عنها فستانها الأزرق، وتتركني أغرق في جسدها، وأنا أدخل معها في لحظة جنسية ملتهبة وكهربائية.

* * *

كانت تلك هي المرة الأولى التي أمارس فيها الحب بشكل طبيعي وشاعري وحتى إن لم أكن مبالغًا في الوصف رومانسي، لكن يجب وضع كل هذا الكلام بين قوسين، لقد فتحت سميرة قطاش شهيتي لأكون بجانبها، وشهيتي لأقتل من أجلها، لقد قررت أن أنتهي من جميع الرجال الذين سببوا لها كل تلك الآلام. لن ينقذهم مني أحد.. كان ذلك قراري الأخير.

صادق سعيد

قال لي: «أظنها مجنونة؟».

سألته باستغراب: «عمن تتحدث؟».

قال لي: «سميرة... تذكر سميرة قطاش».

تذكرت تلك الزميلة التي عملت معي في الجامعة لمدة سنتين، قبل أن تغير المعهد وتذهب للتدريس في جامعة أخرى غير بعيد عن الجزائر العاصمة، كانت مهذبة وخجولة ولكن جريئة في النقاش وصاحبة موقف شجاع عندما يتطلب الأمر منها الشجاعة، لم تكن تتردد في المواجهة والدفاع عن فكرها أو رؤيتها، أما إذا أحست أن كرامتها قد خدشت فالويل لمن يكون أمامها في ذلك الوقت، ستكشف له عن وجه لم يره من قبل، عن مخالب تستطيع أن تمزق بها وجهه اللعين، وسيندم أنه تجرأ وناقشها خاصة إذا كان الموضوع يمس المرأة ووضعها الاجتماعي وحقوقها المهضومة، كان البعض يمقتها لهذا السبب بالذات، أما أنا على العكس كنت أحترمها لذلك

السبب، غير هذا لم أكن أعرف عنها الشيء الكثير، صحيح أنه عندما تحدثت معي في المرات القليلة التي جمعتنا فيها الفرص بدت لي دائمًا مستعدة للهجوم، وكأنها تنتظر من الآخر بمجرد أن يقترب منها أو يحدثها العداوة الأكيدة، فكرت أن ذلك مرتبط بماضيها حتمًا، بتجربتها الشخصية مع الحياة والرجال، فلا شيء يأتي من عدم، كل سلوكنا مرتبط بشيء له علاقة بتاريخنا الشخصي، وحتى لا أكون فرويديًّا وأربط الموضوع بالطفولة وما يحدث فيها من تمزقات وخيبات إلاَّ أنِّي كنت أستطيع الجزم أن للأمر علاقة بقصة حب فاشلة، أو شيء من هذا القبيل.

بدت لي باستمرار فاتنة، وذات سحر خاص من جهة، رغم أنَّها لم تكن بديعة الشكل، بل متوسطة الجمال، وفي نفس الوقت على درجة كبيرة من التوتر والاضطراب، كانت تقترب من العقد الثالث، وأنجزت رسالة الماجستير في موضوع جيد عن «العجائبي في كتب الخرافات الإسلامية»، وكانت لها طموحات فكرية وأدبية كبيرة، على عكس الكثير من زميلاتها اللواتي كن ذوي مستوى متوسط، أو أقل من ذلك في المعرفة؛ إذ لم تعد الجامعة في السنوات الأخيرة –منذ أصابها ما أصاب كل مؤسسات البلد من شبه جمود وتراجع وانحدار– تطلب إلا القليل؛ لتجعل منك في رمشة عين أستاذًا

أو دكتورًا، البعض كان يعتبر ذلك تفسُّخًا وانحدارًا كـــبيرًا، والأغلبية لم تكن تبالي، ولا تهتم، المهم الشهادة ثم الوظيفة ثم الارتقاء حتى مرتبة عُليا؛ إلاَّ أنَّ (سميرة قطاش) لم تكن مـــن هذا النوع الذي يستخف بالعلم والمعرفة، خاصة وأنه كان لها تكوين معرفي جيد، يؤهلها لتكون الأولى بالنســبة لجيلـــها الشاب، كانت صاحبة ذكاء متوقد، وروح متفتحة، لكـــن كنت لاحظت عليها بعض التوتر والقلق الدائمين الـــذي لم أحاول تفسيره، أو لم يهمني معرفة مصدره، ثم كلنا لو حاولنا تحليل ذواتنا بعمق لوجدنا مناطق ظل كثيرة، أو زوايا غـــير مضيئة فيها عتمة شديدة يستعصي حتى بالنسبة لصاحبها على الولوج إليها.

أبديت بعض الاستغراب من حديث صـــديقي فـــاروق طيبـــي عن سميرة قطاش بذلك الشكل، وتساءلت هل يقصد حقًّا سميرة التي أعرفها بشكل ما، أم امرأة أخـــرى؟ خاصـــة وأنني لم أكن أعرف أيضًا عن صديقي فاروق حديثه الســـيئ عن الزميلات، فهو أستاذ محترم، من تلك الطينة النادرة الـــتي صارعت الألغام والأهوال كي تصل إلى ما وصلت إليه، لقد ولد مثلي في حي فقير، وإن كان هو من ولايـــة (المديـــة)، وبالضبط من دائرة (بني سليمان) وعانى كما عانيـــت مـــن ظروف اجتماعية قاهرة لكنَّه كان على عكســـي شخصًـــا

مبتهجًا ولا يترك التشاؤم يتسلل إلى داخله، حتى عندما لا يكون على ما يرام، يستقبلك بابتسامة منشرحة عندما تقابله حتى لا يظهر عليه ذلك الانكسار أو الإحساس بالحزن، كنت أقدره وأحبه لأسباب كثيرة لكن ربما أهمها أننا منذ تعارفنا كطلبة في الجامعة سنوات الثمانينيات حتى ربطتنا صداقة حقيقية، ورغم أننا تفارقنا عدة مرات لظروف مختلفة وأنه عانى كثير من سنوات الإرهاب، حيث قتل أحد إخوته من طرف مسلحين مجهولين اقتادوه ليلاً أمام أنظار الوالدين وبكائهم وعويلهم، وتم ذبحه في إحدى الأماكن المعزولة، وبعد أسبوع فقط جاءه الدرك الوطني وأخذوه إلى المشرحة للتعرف على جثة أخيه، كانت تلك الحادثة من أهم ما أثر فيه نفسيًّا وجعله شخصًا منزويًا لفترة طويلة، بالكاد يتكلم مع الآخرين، أما الثقة فانعدمت تمامًا، تغير كثيرًا كما أذكر، ولم يعد بالفعل يثق في (الإنسان) بشكل عام، وكنت الوحيد تقريبًا الذي يفضي له بمكنوناته الداخلية كما كنت أفعل بدوري، كنا أصدقاء ونحمل في قلوبنا أسرار بعضنا البعض، جروحنا وأحلامنا ورغباتنا المدفونة..

سألته من جديد: «وما الذي يدفعك لتقول هذا عن سميرة قطاش؟».

رد بتذمر، وبلكنة ناقمة: «ألم تفهم بعد!».

وأضاف وقد ظهرت على وجهه كل علامات الحب المهزوم، وكانت تلك أول مرة أراه على ذلك الشكل، لقد بدا لي هائمًا في حبها، متيمًا بها حد الجنون، ولم أعرف كيف أواسيه، كيف أقنعه أنه مهما كان حبه لها كبيرًا فعليه أن يكون قويًّا، فالحب يستطيع أن يهلكنا إن لم نتمكن منه، خاصة لأصحاب القلوب الهشة مثل قلبه، ولكني كنت أجد له الأعذار، أو التبريرات الكافية فتلك الفتاة الفاتنة كانت ساحرة، ولها تأثير قويّ على كل من يقترب منها، ولم أستطع حتى أنا في لحظة ضعف مقاومتها، حاولت مع ذلك أن ألعب دور الصديق الكبير، أن أنبهه للخطورة، خاصة وأنه بدا لي في حالة يرثى لها، حالة من وصل به الحب إلى مهاوي الجحيم، وقيعان اليأس. دون أن يبادر حتى أن يفضي لي بما يحتويه قلبه من شغف وحزن.

لم يقل لي شيئًا محددًا واكتفى بعبارة (ربما) فلم أحاول إجباره على الإفضاء، ذلك أنه منذ فترة لم نعد نلتقي كما في السابق أنا بسبب زواجي من سارة حمادي، وظروفي التي تغيرت مع الزمن، وهو لأنه انتقل للتدريس بجامعة (المدية)، لكنه كان كلما نزل إلى العاصمة حتى يناديني بالهاتف: «يا لعين أين أنت؟»، فأسرع إليه، نقوم بجولة بسيارتي الغولف المطلية اللون الأحمر، دلالة على وفاء قديم لخطي الأحمر، على

الشريط الساحلي لمدينة الجزائر العاصمة، ذلــك أن البحـــر الأزرق الجميل ظل واحدًا من المناظر التي يعشـــقها فـــاروق بجنون.. ويعتبر البحر (آلهة عظيمة)، ويتعجب كيف أن البشر عبدوا في القديم كل شيء في الكون كالشمس والقمـــر، و لم يعبدوا البحر الذي يفتن العين والقلب معًا.

كنت أرد عليه «البشر يحبون عبادة البعيد، غير المدرك، أما القريب فلا يهتمون به كثيرًا...».

كان واضح أن شيئًا جللاً يحدث في داخل فاروق: أهو العشق الكبير أم الهزيمة الساحقة؟ لم أستطع تحديـــد ذلـــك، وأعدت في ذاكرتي شريط ذكرياتي مع (سميرة قطاش) الــتي عرفتها بأشكال مختلفة، حالمة ومتدفقة بالحيوية، باحثة جادة ومتميزة، تائهة ولا تعرف طريقها، عاشقة مجنونة وتســتطيع من أجل عشقها أن تفعل كل شيء حتى ما يسيء لها أو يدمر غيرها.. لو سألني عنها قبل أن يقع في حبها لقلت له: هـــي رائعة ولكن خطرة... هي ساحرة ولكن مجنونة، هي ذئبـــة متخفية في جسد غزالة فاتنة، هي قطة ناعمة ولكن تســتطيع التحول بسرعة إلى نمرة مفترســـة.. هـــي نســـاء كـــثيرات مضطهدات في امرأة مقاومة.

بعد مناقشتها لرسالة الماجستير دَرَسَت سنة فقط بجامعة الجزائر، كنت أراها تقريبا مرتين في الأسبوع؛ لأنها كانـــت

تصر على حضور محاضراتي التي ألقيها على طلبتي في مـــادة الرواية اليوم، وكانت تخبرني أنها تفعل ذلك لأنني لا أتحـــدث عن الرواية بمعزل عن الواقع الذي نعيش فيه، ودروسي هـــي «مواعظ إنسانية من أجـــل تعلـــم الحيـــاة عـــبر الأدب»، ولأني أضمن رؤيتي دائمًا «نقدًا سياسيًا يوجـــه الطلبـــة إلى ضرورة أن يكونوا منتبهين إلى الظلم والفساد الذي نعيش فيه اليوم».

كنت بالفعل ملتزمًا سياسيًّا بخط نقدي لم أحد عنه منذ شبابـــي وانخراطي في حزب يساري، ثم خروجي منه بعـــد خيبة تراجع مَن كنت أعتبرهم مناضلين، أو انتقالهم من خط أحمر واضح الصورة والمعالم إلى خطـــوط بكـــل الألـــوان، واكتشافي أنَّ المثقف لا يصلح لأن يكون مناضلاً حزبيًّا؛ بل مثقفًا نقديًّا مستقلاً لا يؤطره غير قناعاته وأفكاره ومواقفـــه الفردية الخاصة به.

كانت تتواجد دائمًا في الأماكن التي أكون فيها، وهـــي ترمقني بنظرات إعجاب تثير غرابتي، بل كنت أخجل منـــها، ولكن بقيت أحس أنها مجرد طالبة معجبة بأســـتاذها، أو أني أمثل لها نموذجًا ثقافيًّا تؤمن به هي أيضًا، وتريـــد أن تحـــذو حذوه لا غير، وما شجعني على عدم التأويل هو أنَّها كانت تعرف قصة حبـــي لسارة حمادي، وبدوري قدمتهما للبعض

-في مناسبة لا أذكرها- وحدث بينهما تواصل وتفاهم، لكن سارة أخبرتني مرة مازحة: هذه الفتاة أظنها تحبك. فأجبتها ساخرًا بدوري... أحيانًا أشك في ذلك... ولكن سارة لم تكن تغضب، وكانت لها ثقة عمياء فيَّ، تمامًا مثلما كانت لي ثقة عمياء بها... كنا نحب بعضنا بشكل لم يكن يخطر ببالنا أنَّ بإمكان شخص غريب خلق توتر أو ريبة فيما بيننا...كان ذلك شيئًا أقرب إلى المستحيل.

ومع ذلك كانت سميرة تتدخل في حياتي وتفاجئني بذلك الحضور الكثيف، الذي رغم انزعاجي منه لم أستطع صدها عني، بل تركت للوقت فرصة كي تفهم وحدها استحالة أي أمل في إقامة علاقة ممكنة بيننا، لكن يجب أن أعترف من جهة أخرى، أن حضورها المستمر، قد خلق بداخلي مساحة من الاهتمام بها، وجاذبية ما نحوها، لكنها لم تتعدَ حدود الرغبة المحرمة، أو التي لم أكن أفكر في تحقيقها، ولكن تركتها كامنة في مكان غير مرئي في شعوري الباطني. حتى أخبرتني يوما أنها قررت أن تلتحق بجامعة تيزي وزو فأبديت لها سعادتي بقرارها ذاك، وعرضت عليها حتى أن أصطحبها بسيارتي إلى غاية محطة خروبة في سفرتها الأولى إلى مدينة (تيزي) ففرحت بذلك، وقالت لي: هذا رائع منك، رغم أني سأفتقدك... فلم أجبها إلا بابتسامة خجولة.

تعمدت سميرة في السيارة عدة مرات أن تلامس بأصابع يدها يدي، كانت كأنما تحاول أن تخلق احتكاكًا ما، شعرت ببعض الحرارة تصعد إلى راسي، حاولت أن أخفـي عنـها ذلك، كنت في علاقة حب قويّة مع سارة وكانت هي على علم بهذه العلاقة، و لم أكن مستعدًا للمخاطرة بسارة من أجل لحظة لا أفهمها، غير أنّها استطاعت حتى دون أن أعي مـا يحدث لي أن تثير فيَّ شيئًا ما، وهي رعشة غريبة، ولذيـذة، تشبه رعشة الإثم التي لا تشبهها رعشة أخـرى، ووجـدتني أوقف فجأة السيارة وأنظر إليها وهي غارقـة بنظرهـا في وجهي، وأنا ألعن نفسي داخليًّا «ماذا أفعل يا إلهـي، أيتـها الشيطانة توقفي عن إغوائي!»، فجأة وجدتني أقبلها وألتصق بها، وأفعل معها الحب داخل السيارة، وما أن انتهى الفعـل حتى غشيني ذلك الشعور المؤلم بالذنب، وشعرت بـالتعفن الداخلي، وأدركت أنني قمت بشيء منكر في حق من أحب، بينما ظهر عليها هي ذلك الوهج الذي لم أره قطٌّ من قبل في عيني امرأة مفتونة بما حدث بيننا، كما لو أنّها رياضية تفـوز بالمرتبة الأولى في مسابقة صعبة ومستحيلة الفوز، وأنها تمكنت من تحقيق ما تريد، عدت إلى قيادة السيارة من جديد، وشملنا صمت مروع، لم أقل كلمة، وهي بدورها لم تقل شيئًا، بقينا صامتين أنا تأكلني نار الندم وهي مستسلمة لنار النشوة، حتى

وصلنا إلى المحطة حيث أسرعت إلى مساعدتها في إخراج الحقيبة، متحاشيًا النظر إلى عينيها، صرت مرعوبًا ممًّا فعلت، أحاول التملص منه قدر المستطاع، وأنا أقول إنها مسافرة إلى بعيد ولن يعود ما فعلناه إلاّ شيئًا من الذكرى التي تطوى في صفحات النسيان، لن أتذكره أبدًا، وهي من جهتها لن تعود إليه، مثل خطأ مطبعي مهمل لا يصلح أن نتوقف عنده طويلاً.

***

بعد شهرين من سفرها وصلتني رسالة من (سميرة قطاش) جاء فيها:

«عزيزي الأستاذ صادق سعيد

بعد التحايا والسلام

كما تعرفني أنا جد متحفظة مع الآخرين، ولا أحب أن يعرفوا شيئًا عني، خاصة في الحيز الذي أعمل فيه، وأرغب أن تظل علاقاتي مع الزملاء مهنية ومبنية على الاحترام المتبادل، وكامرأة من الشرق الجزائري، تربت على ثقافة محافظة إلى حد بعيد، متعصبة للأصول والتقاليد كنت دائمًا أصارع في نفسي هذا الموروث المتأصل، وبالفعل تمكنت بفضل القراءة والمعرفة من الانتصار على ذلك الجانب، لكن أدركت كذلك

أن مجتمعي لا يتسامح مع الحرية، وحتى مجتمعنا الجامعي الصغير الذي نعتقده أكثر رقيًا وتفهُمًا فهو كما تعلم أكثر الأمكنة محافظة، رغم تظاهره بالتسامح والمعرفة، فهو يظهر ما لا يبطن، وأول من يسمح لنفسه بمحاكمتك على أبسط تصرفاتك، مثل: طريقة لبسك، وأسلوبك في التفكير، فهم مستعدون في كل ثانية على إدانتك بما ليس فيك، أو اتهامك بما أنت عاجز عن القيام به، أو التشنيع بك، والتحريض عليك، وفي الخفاء يحدث الابتزاز...كل هذا في سبيل أن أقبل بأن أكون عشيقة هذا المدير، أو ذاك الأستاذ...

وبما أنّني متعودة على ثقافة الاختفاء منذ الصغر، فتلك هي تربية المرأة في مجتمعنا، تتعلم كيف لا تقول إلا ما يعجب الذكور، وهكذا تمكنت بدوري من صنع واجهة للآخرين، وتركت أموري الداخلية لنفسي، قد تتساءل لماذا أخبرك بذلك؟ أنت من دون الآخرين، والحق أن هذا يعود لسبب بسيط أنك كنت زميلاً مثاليًا في الفترة التي عملنا معًا بجامعة الجزائر العاصمة، لقد تحدثت كثيرًا معك لأعرفك، لم أشعر يومًا أنك تشبه الزملاء الآخرين، لا في طريقة كلامك، ولا في تصرفاتك، كنت مثالاً حقًا لذلك الذي يحترم رأي الآخر وخاصة إذا كان هذا الآخر امرأة، فكأنك فجأة تصبح أقل دفاعًا عن قناعاتك، وتترك المرأة تعبر عن موقفها بشكل

مثالي، البعض ربما يعيب عليك أنَّك تتصرف بمثل هذا التواضع مع الطالبات أو الزميلات، والبعض الآخر يثير حولك العديد من الشائعات، من أنك شيوعي مثلاً، أو أن نظرتك مادية للمرأة والحياة، أو أنك تخفي داخلك شيطانًا لعينًا يغوي الفتيات بطرق خبيثة، لطالما سمعت عنك حكايات كثيرة، كنت أضحك من غالبيتها؛ لأنَّه كان يكفي من يحاول الإساءة لك بتلك القصص المختلقة أن يجلس إليك قليلاً ويناقشك في أي موضوع حتى يفهم أنك لست على تلك الصورة التي يريد أن يلصقها بك، أما كونك شيوعيًّا، أو غير شيوعي؛ فهذه أمور تخصك لوحدك، وإن كنت أظن أنَّك تجاوزت هذه التصنيفات؛ لأنَّك لم تكلمني يومًا بلغة أيديولوجية، كان كلامك منطقيًّا وعقلانيًّا وساحرًا! نعم؛ ساحرًا لأنَّك كنت تطرزه بأبيات من الشعر العربي القديم، أو الحديث، ومرات بشعر فرنسي أو ألماني، وكنت دائمًا تحثني على القراءة وتقول لي: «هي الطريق نحو الحرية الكاملة والحقيقية...». لقد كنت أحترم فيك كل هذه الأشياء، وسأخبرك بسر، لو لم أكن أعرف قصة حبك **لسارة حمادي** لما ترددت لحظة من مغازلتك مباشرة، وعندما سمعت أن عشقك تكلل بالزواج منها بعد مد وجزر دام سنوات طوال فرحت بذلك، ليس لأنِّي أقدس مؤسسة الزواج، أو أعتبرها

بالفعل التتويج النهائي للحب، بل لأنّك احترمت حبيبتك، وجلبتها إليك، كي تتقاسما السراء والضراء، إنّ هذه التفاصيل التي قد لا تهمك في شيء، ووصلت إلى سمعي دائمًا لأنّي كنت مهتمة بك، بكل أخبارك سواء تلك المتعلقة ببحوثك ومقالاتك الأكاديمية أو تلك المقالات السياسية الحرة التي كنت تنشرها هنا وهنالك، أو بالأمور التي تتعلق بحياتك، كنت أتابعها عن قرب ولكن من بعيد، ولا أجرؤ على التحدث فيها معك، ربما لأنّك كنت تضع دائمًا مسافة بينك وبين الآخرين، وتلك المسافة هي التي كانت تجعل حتى أعداءك يضطرون لمجاملتك والابتسامة في وجهك، رغم أنّهم كانوا في الخفاء يشنون عليك حملات كثيرة أحسب أنك بفطنتك كنت تعرفها وتتجاهلها أو تتعامل معها ببرودة، أو لا أدري فلم أكن يومًا قريبة منك لأعرف كيف كانت تؤثر عليك بعض الشائعات، خاصة تلك الشائعات الحقيرة، أذكر يوم نشرت مقالات كثيرة بجريدة (الرأي) تنتقد فيها السلطة السياسية، كيف وجدها البعض فرصة لكتابة تقارير عنك، جعلت الأمن يستدعيك ويحقق معك، ولا أدري أي يد سماوية تدخلت وأنقذتك حينها، كنت خائفة عليك، لا أعرف كيف أمد لك يد العون، ومن جهة ثانية كنت أعتبرك متهورًا لأنّك تكتب بكل حرية ما تفكر فيه، وكأنّك تنسى

طبيعة هذا البلد، وما يمكن أن يحدث فيه للرجال الشرفاء وأصحاب الضمائر الحرة، مع أنّي في داخلي كنت مقتنعة أنّ طيبتك ونزاهتك هي التي ستنقذك؛ لأنّك كنت نقيًّا بالكامل، كان نقاءك مثالاً للمثقف الجزائري الذي ترفع له القبعة، لم تكن تبيع ولا تشتري في محبتك للناس ودفاعك عنهم...كنت هكذا من طينة أخرى وكنت أغار من تلك التي تنام إلى جانبك، تحضنك وتعمق شعورك بالانتماء وثقتك فيما تكتبه، أما أنا فكنت محرومة من كل هذا ولم أكن أستطيع أن أضمك إليّ حينما تحتاجني في ذلك...

سامحني أني ثرثرت عليك طويلاً في أول رسالة أكتبها لك، بعد شهرين من وصولي إلى مدينة (تيزي) الحياة هنا بالرغم من كل شيء تبدو لي مختلفة، واكتشفت أنّ القبائل أنوع مختلفة هم أيضًا، وأنّنا تعودنا على الحكم التعميمي على أنّهم فصيلة واحدة، لهم رأي وموقف واحد، اكتشفت أنّهم يختلفون كأفراد عن بعضهم البعض، بل التمايزات كثيرة، ونظرتهم للجزائر هي نظرة معظم الجزائريين وحبهم للوطن قويٌّ ومن السخافة أن نتصورهم عكس ذلك، وبطبيعة الحال يوجد متعصبون لما يعتبرونه قضيتهم، بل هنالك حتى عنصريون حمقى، فمثلاً دخلت مرة متجرًا ولأني لم أتحدث مع صاحب المحال بالأمازيغية التي لا أتقنها لم يبعْ لي ما

أردت، لكن كانت تلك الحادثة يتيمة بالفعل، فهنالك من كان يرحب بي أكثر من اللازم حتى أشعر بالحرج والارتباك؛ لأنِّي فقط من الشرق الجزائري وبالضبط من قسنطينة...

توجد أشياء أخرى كثيرة يمكنني أن أحدثك عنها في المستقبل إن وجدت عندك الاستعداد لقراءة رسائلي... دائمًا أفكر في جملتك القصيرة: «الحياة جميلة يا صاحبي»، رغم أنك أخبرتني أنَّها عنوان لرواية كتبها الشاعر الثوري ناظم حكمت... هذا يجعلني أسألك: هل أنت حقًّا شيوعي؟».

تيزي وزو الثانية بعد منتصف الليل

الإقامة الجامعية

لقد وصلتني بعدها رسالتين أو ثلاث تحكي فيها بعض الأشياء عن اهتماماهّا الأدبية، قراءاهّا لبعض الكتابات النسائية مثل نوال السعداوي اكتشافها ليوميات أناييس نين، وكانت معجبة بعلاقة هذه الكاتبة الأمريكية بالروائي هنري ميلر، ثم في رسالة ثانية عن طالب يدرس عندها تقول أنه أغرم بها، ولكن غرام جسدي، جاء في رسالتها «تصور كيف تكتشف أن هنالك عينان تظلان طوال ساعة إلقائي الدرس مركزة على مناطق بعينها في جسدي، إنه يشعرني

بالاغتصاب، في البداية غضبت ورأيت في مثل هذه النظرات وقاحة وقلة حياء وفضلت بدل المواجهة عدم المبالاة لكن تلك النظرات الوقحة كانت تعود إليّ ليلاً وأنا مستلقية على السرير، تخترقني بالفعل، وأحلم أنّي تحت سطوته الجسدية، يفعل بي ما يشاء، أنا تحت إمرته، جسدي يرتعش لمجرد أن يضع أصبعًا واحدًا في تلك المنطقة التي لا يتوقف عن النظر إليها... كيف يفسر التحليل النفسي ذلك؟ أظنني مكبوتة، أووف هذه ليست مشكلة لأني أعرف ذلك من زمان...».

أما الرسالة الأخيرة فبدت كأنّها رسالة وداع، ولأنّي لم أرد عليها، لم ترسل لي شيئًا آخر بعدها، جاء فيها:

«سيدي العزيز المحترم

التحايا والسلام

مهما كانت الأسباب التي منعتك من الرد على رسائلي؛ فأنا أتفهم ذلك، وأحترم موقفك مهما كان مخيبًا لامرأة مثلي، كانت تريد أن تبادلك بعض الأفكار الحميمة والتفاصيل التي تعيشها في منطقة غير التي ولدت وترعرعت فيها، ومع ذلك، هل أعجبتك رسائلي؟ هل ضايقتك؟ هل شممت رائحة سيئة تفوح منها؟ هل أدخلت في قلبك البهجة؟ لم تطلعني على أي شيء، والحق أن تصرفك بدا لي رغم تفهمي له غريبًا بعض الشيء؟ هل يعود السبب أنك متزوج؟

وأن زوجتك لا تقبل أن تصلك رسائل من زميلة سابقة لك؟ ما المشكل، رأسي يدور بأسئلة كثيرة وغبية ومُلحَّة، ولكن لا أعرف كيف أجيب بدلاً عنك، لو كنت مبدعة لخمنت ربما ما يدور في ذهنك وقلبك ناحيتي، إنَّني لا أعتبرك شخصًا متعجرفًا على الإطلاق، بل ذلك الشخص النبيل الذي يستحق الاحترام والثناء، وأنا -حتى بعيدًا عنك- أثني على مستواك العلمي الكبير، وخلقك الرفيع، وكل من يسألني عن أحسن أستاذ جامعي في الجزائر العاصمة أخبرهم عنك، كما لو أنِّي أرد لك جميلاً ما، مع أنَّك لم تسدِ لي أي جميل! لقد كانت علاقتك بي سطحية، لكن متميزة، لم أكن ضمن تلك الخلية الصغيرة التي كنت تفضلها على الجميع وتعتبرها عائلتك القريبة، أقصد التي صارت زوجتك الآن **سارة حمادي**، وصديقك الوفي **فاروق طيبي**.

هنالك أمور غامضة في حياتي وأمور أخرى مسكوت عنها، لن أخبرك بها بالتأكيد، ما دمت رفضت أن تكتب لي، مع أنِّي لم أطلب منك شيئًا بعينه، أردت فقط أن أعرف السبب الذي يمنعك؟ ربما لم تميزني يومًا عن غيري، أو ربما لأنَّك تميزني لا ترغب في أن تتواصل معي... لا يهم...

لقد تعرفت على رجل في (تيزي) يعمل في الدرك الوطني، لم أتصور يومًا أن يكون لي علاقة برجل عسكري،

هو يظهر لي كثيرًا من الود والطيبة، لكني بسرعة فهمته جيدًا، هو مكبوت جنسيًّا مثلي، ويريد فقط أن نتقاسم غرفة في فندق ونقضي ساعات، هو يظنني لا أفهم هذا الذي يتستر عنه في كلامه، أنا أتعبه حقًّا، أطلب منه أن نجلس في مقاهٍ عامة، قاعات شاي، حدائق، مطاعم، أن نتحدث في كل شيء ولا شيء، هو من دون مستواي العلمي، لا يتكلم في الثقافة، لا يعرف شيئا عن الكتب، ولكنه يتكلم معي بلطف وطيبة، أحيانًا ينتابني إحساس أنَّه يكذب عليَّ فقط، يقول لي كل خمس دقائق: تعجبيني، أعشقك، ولا يستمر ظنًّا أن الإفصاح عن الرغبة سيجعلني أحتقره، في الحقيقة أنا أرغب فيه أكثر ممَّا يظن، لكن لَمَ العجلة، لَمَ أسرع الخطى، سأتركه يحترق قليلاً، يغلي كثيرًا من أجلي، ثم بعدها ربما أقدم له نفسي هدية؛ لأنِّي صرت أكره نفسي ومشاعري القديمة، إنِّي أريد أن أهرب منها الآن، أن أجد لها تعويضًا في وجوه أخرى، في حياة هامشية أخرى ثم بعدها لا شيء، ربما سيكرهني أو يستمر في التعلق بجسدي، سيعتبرني مثل كل رجال المجتمع الحقير الذي نعيش فيه أنِّي صيد ثمين للمتعة، لكن لن يطلب يدي من أهلي؛ لأنِّي قدمت جسدي هدية له؟ أليس هكذا يفكر الجميع... دون أن يجرؤ أحد على قول ذلك...

صدقني لست أدري لماذا أحدثك عن هذا الدركي، إنَّني لا أشعر نحوه بأي شيء، فقط أجد فيه فسحة للهروب من كل ما يحدث بداخلي، أنت سببه بالتأكيد، حتى لو تعاميت عن ذلك، لا أستطيع نسيانك، إنَّني أجرب الانفلات منك، وقذف نفسي في مجاهيل أشعر أنَّها ستحطمني يومًا، لكن ما العمل يا أستاذي أو دعني أكون صريحة معك على الورق يا حبيبي، دعني أتوهم ذلك، وأشعر أنِّي أكتب لشخص عزيز على القلب...

دعني أخبرك عن أول تجربة صادقة عشتها عندما كنت طالبة بجامعة الجزائر منتصف التسعينيات، هو أول حب في حياتي، إنْ تجاهلت حب المراهقة المثالي، أستاذ شاب يُدرِّس الفلسفة، هو الذي عاكسني مرة على هامش ملتقى أدبي، لا أذكر محوره اليوم، كان وديعًا مثل أرنب، حتى إنِّي استسلمت لكلماته الشاعرية، وأنا أشعر بأمان تام، بصدقه الرائع، وروحه الجميلة، فرحت بوجود أشخاص من هذا النوع، ترتاح لهم روحيًّا وجسديًّا، يدخلون إلى العمق، لقد صار حبيبي الرسمي، الذي لن أتنازل عليه مهما كان الثمن، حتى إنَّه بعد سنة فقط اقترح عليَّ الخطوبة والتقدم للأهل والزواج، فرحت كثيرًا، كنت أكره الزواج؛ لأنَّه يذكرني بقصص تعيسة في عائلتي، أمي المطلقة بعد ثلاثين سنة

من زواج تعيس، أبـــي الذي تركنا وهاجر إلى فرنســـا و لم يعُد قطٌ، أختي الكبرى التي تزوجت صغيرة من إمام مســـجد يكبرها بعقدين، لكنَّها فرحت لأنَّها كانت متدينة بطريقـــة شعبية وتعتقد أنَّ رجلاً متدينًا هو الأصلح للزواج وتكـــوين أسرة، لكنَّه اضطهدها من البداية، كان يضربها كـــل يـــوم، أنجبت معه دزينة أطفال، ثم لم تعد تحتمل كل تلك الوحشية التي يتعامل بها معها، والغريب أن لا أحد كان يصدق أنَّـــه يظلمها أو يضربها؛ لأنَّه كان إمام المسجد الذي يؤمُّ كل يوم المئات من المؤمنين في الحيّ... إنَّه يحمل في قلبه نور القـــرآن العظيم... لكنَّها هربت وطلبت الطلاق وطلقها بسرعة وترك لها طبعًا دزينة الأطفال كي تُمتحن وحدها بهم، وأعاد الزواج بسرعة من فتاة في سن المراهقة... كل هذه القصص القديمـــة كانت في ذهني وحبيبـــي رشيد أستاذ الفلســـفة الهيجيليـــة يقترح عليَّ الخطوبة، لقد كانت بيننا رابطة معنوية قويّة هـــو يسميها الحب. أما أنا؛ فالتعاطف هـــي الكلمـــة الأقـــرب للحقيقة، نعم كنت أحبه بشكل قويٍّ ولكن لم أكن أعـــرف ماذا يعني الحب في النهاية؟ في البداية كنت حذرة وبقيـــت دائمًا حذرة، إن عالم الرجال يبدو لي غامضًا ومخيفًا في كثير من المرات، والأمر كان له علاقة بتجارب غـــيري ولـــيس بتجربتي الشخصية، وكان لذلك تأثير على رؤيـــتي للحـــب

والعلاقة مع الرجل ومؤسسة الزواج وغير ذلك...

رشيد كان متفائلاً بزواجنا، ويقول إنّي المرأة المناسبة التي حلم بها طوال حياته، كان هو في الثلاثين وأنا في الرابعة والعشرين، ثم جاءت المشكلة العويصة التي لم نجد لها حلاً، أو جعلت الأحلام الجميلة تتبخر فجأة، وندخل في منعطف خطر، يؤدي لا محالة إلى الهاوية التي بلا قرار... لقد كان حبنا عذريًّا، و لم يحدث طوال سنة العلاقة حتى تبادل قبلة خفيفة، كان حبًّا قلبيًّا وروحيًّا، وكانت تهفو روحي لمعانقته وتقبيله، ولكنَّه لم يكن يظهر رغبة في ذلك، كما لم أظهر لهفة لأي فعل من هذا النوع، وقال لي مرة: كل هذا سنستمتع به بعد الزواج في الحلال... صحيح أنه عندما قال «في الحلال» ضحكت في قلبي قليلاً، ليس لأنّي لم أكن متدينة مثله، أو متدينة على طريقتي ككل الجزائريين والجزائريات «اشوية دين واشوية حياة»، ولا نحاول التفكير كثيرًا في المسافة بين قليل من الحياة وقليل من الدين وماذا يعني ذلك في النهاية، ضحكت في قلبي؛ لأنَّ رشيد كان أستاذ فلسفة حديثة، متفتح وعصراني، ينتقد الموروث من دون شفقة، يعتبره أصل التخلف الثقافي والحضاري الذي نعيشه، يؤمن بالحداثة والعصرنة والعقلانية والقطيعة وكل ما يمكن وضعه في هذا القاموس العلماني، كنت معجبة به فكريًّا أيضًا؛

لأنّي في صميم عقلي وقلبـــي كنت منشقة على أصولي التي تربيت عليها، أو أرغب في القطيعة ووجدت في صحبة رشيد ما كنت أتمناه، وعبر الزواج سيتحقق لي ذلك أو أكثر... لهذا لم أفهم دلالة (الحلال) في العبارة... لكن لم أحمـــل العبـــارة أكثر ممًّا تحتمل، قلت ربما نطقها سهوًا فقط، أو هو يريد أن يعرف طريقة تفكيري، أو لا أدري كيف فكر في المســـألة؟ لكن المشكلة لم تطرح على هذا المستوى... لقد عاش رشيد في باريس أربع سنوات عندما ذهب في منحة جامعية لإتمـــام رسالة الدكتوراه وبدأ يقص عليّ مغامراته النسوية، لا أدري كم عدد النساء اللواتي كان سعيدًا ومفتخرًا أنه مارس معهن الجنس وراح يمدح الفرنسيات والأوربيات على العموم على أنهن يملكن ثقافة الجسد ويحسن كل فنون الجماع وو... حتى سألته: وهل كانت لك تجارب مع جزائريات؟ رد مبتســـمًا وكأن سؤالي أبهجه: ثلاث فقط... تجارب ســـيئة لا أريـــد تذكرها الآن... الجزائريات ينقصهن الفن، ولكن أنـــا الآن تجاوزت كل هذا... أريد الزواج وإنجاب الأطفال والاستقرار معك... لم يلاحظ حتمًا وجهي المكفهر ساعتها، وإلا مـــا واصل حديثه عن مغامراته التي فجأة أظهر لي وجهًا لم أعرفه في رشيد الذي أتعاطف معه أكثر ممًّا أعشقه بجنون... للحظة ران صمت غريب بيننا، لم يزد حرفًا في حديثه، و لم أتفوه من

جهتي بكلمة واحدة، ثم لا أدري أي نوع من الشياطين الذي ركب رأسي فجأة وسألته: ولماذا لم تسألني عن تجاربـــي أنا؟ ولأنه لم يتوقع مني سؤالاً كهذا ارتبك واحمرت عيناه ومـــال وجهه للدكنة، ونظر إليّ لأول مرة بطريقة حقـــودة وعلـــى لسانه استفسار مبهم: ماذا تقولين؟ ثم سؤال مباشر: لا تقولي إنه كان لك... لا... لقد احترتك لأنَّك فتاة شريفة ونقيـــة ولا تقومين بمثل هذه الأمور... أجبته بشجاعة كبيرة: لا أقوم بتلك الأشياء الوسخة التي قمت بها أنت... ألم تكن تفتخـــر منذ قليل بها... ألم تعتبرها تجارب ساعدتك في الحياة، أم هو أمر خاص بالرجال فقط ونحن النساء فهذا يسيء لنا، يلوث أجسادنا... وأرواحنا ويجعلنا غير قابلات للزواج...

وبصوت مرتفع صرخت: لقد كانت لي تجاربـــي أنـــا أيضًا لكن ظننتك مختلفًا عن باقي الرجال الـــذي يحـــاكمون المرأة على ما يعتبرونه بالنسبة لهم أشياء طبيعية... ثم سأخبرك بشيء آخر... لقد فقدت عذريتي في سن الثامن عشـــرة... حتى تعرف من الآن مع من ستتزوج...

وقمت منصرفة، تركته يغلي أو يبكي لا أذكر، صعقته كما صعقني خطابه المتعجرف، الذكوري الفـــج، وبكيـــت عندما وصلت إلى الغرفة بالحي الجامعي، بكيت لا تحسرًا على فقدانه، بل لأنِّي شعرت بأسف أنني كنت أكذب عليه وأنـــه

كان سيكون رجلي الأول الذي سيلمس جسدي لأنّه تمكن من أن يلمس روحي... لكن كل هذا لا يهم... لقد أدركت أنه سيختفي من حياتي إلى الأبد، ومن يومها سأكره الكثير من الرجال وسأحمل عنهم صورة مشينة...

أعذرني لقد أطلت...

كل هذا لأقول لك إن ظهورك في حياتي هو الذي أعاد لي بعض الثقة في الرجال أو فيك بالخصوص... أو أنت وحدك... لكن غيابك عني سيقودني إلى حالة مخيفة استشعر سيئاتها من الآن... لا أريدك أن تشفق عليّ أو تقلق نفسك على مصيري أعرف أن لك حياتك الخاصة وحتى نضالك المشرف... فقط... لا شيء... وداعًا».

الإقامة الجامعية تيزي وزو

كانت رسالتها الأخيرة في تلك الفترة، وكي أكفر عن ذنبي في عدم الرد، حصلت على هاتفها واتصلت بها وشكرتها على الثقة التي منحتها لي كي أطلع على بعض أشيائها الحميمة، أخبرتها كذلك أنها تكتب بطريقة روائية جميلة، وأنها تستطيع استغلال هذه التجارب في نص روائي قويّ، أصابها الخرس عندما سمعت صوتي، لم تقل شيئًا وأحسستها تبكي في الجهة الأخرى من التلفون، ثم

استجمعت قوها وعبرت عن بعض غضبها أنني لم أكتب لها ولو رسالة قصيرة، ولو كلمات قليلة لأشعرها أنها حاضرة وموجودة ولها بعض القيمة في حياتي...

بدوري وجدت صعوبة في الرد على تساؤلاتها وطلباتها، وخفت أن أجرحها في مشاعرها، لقد بدت لي عاصفة مدمرة أو بركان هائج ومن الصعب في مواقف كهذه قول أي شيء، لكن لم أستوعب ولو لبرهة خاطفة ماذا سينجر من كل هذا، كنت أريد أن أبث فيها حيوية المقاومة، وأن أدفعها إلى التركيز على الدراسة والبحث، وأن مشاعرها المشتعلة اليوم ستجد في النهاية من يحتويها، وأن الحياة لا يجب أن تتوقف عند حكاية واحدة، بل عليها أن تكون مجموعة حكايات كثيرة، كل حكاية تضعف الأولى وتقوي من الثانية.

ظهر لها كلامي ثرثرة في الفراغ، لقد استطاعت أن تشعرني أن حبها لي من القوة بحيث لا تستطيع التخلي عنه، وبطريقة غير مباشرة أرسلت لي بين السطور تهديدات واضحة... إن لم تكن معي سأدمر حياتك وحياتي... حينها أغلقت السماعة وخفت من كل ما سيحدث...

***

الذين يعرفوني من الداخل يعرفون طيبتي وحجم تسامحي، أمَّا الذين ينظرون لي من الخارج، فيرونني متكبرًا ومليئًا بالأحقاد والغرور، والحق أنِّي لم أسع يومًا لتصحيح صورتي عند غيري، كنت معتزًا بخطي المستقيم، بطريقتي في التفكير والحياة، لعلَّهم سيجدون صعوبة في وضعي في خانة معينة، وهذا ما ظل يريحني بالتأكيد؛ لأنِّي كنت أمقت أن أوضع في صنف جماعي محدد يحكمون من خلاله عليك بالجملة، كما يفعلون مع الجميع، وأدركت أنَّ ثمن هذا الخط مكلف جدًّا، حتى سارة كانت تنصحني أن لا أدخل في مواجهات أخسر فيها، خاصة في الفترة الأخيرة، حيث ازداد الحصار على المثقفين، وأصحاب الرأي الحر، حتى توقف الجميع عن قول الحقيقة، وسارعوا لأخذ المناصب مقابل الولاءات، فخضت حربي بمفردي ضدهم، كانت مقالاتي مختلفة ونقدية ومباشرة، ليس فيها تزويق أو تليين، كنت أكتب بشراهة عن قناعاتي، وأنَّ هذا البلد هو أمانة في رقابنا ولن نترك الفاسدين يحكمونه أو يسرقونه أو يحطمون كل ما ناضلنا سنوات طوال من أجله، ولكن كنت أدرك حجم الخطورة، صاروا كل شهرين أو ثلاث يستدعوني للاستجواب حول هذا المقال أو ذاك، تحقيقات تدوم بالساعات الطوال حتى أرهق نفسيًّا وجسديًّا وأشعر بضرورة

التراجع خطوة إلى الوراء، ثم تأتي بعدها مباشرة مرحلة الإغراء، يطلبك مدير الجامعة إلى مكتبه، يقدم لك القهوة والترحيب المبالغ فيه، ويبدأ بعدها في عرض ما يمكنك الحصول عليه لو تقبل الرجوع والصمت «ما رأيك لو نرسلك في منحة للتفرغ في جامعة أمريكية»، أو «حقًا يا صادق أنت تتعب نفسك بالمجان، ماذا لو اقترح عليك منصبًا في مؤسسة حكومية، أو حتى وزيرًا إن رغبت؛ فأنت كفؤ والبلد بحاجة إلى الأكفاء»، وعندما يشاهد في عيونك أنَّ كل هذا لا يغريك ولا يثير فيك أي رغبة للتلطخ به، ينصحك بالتعقل وترك شخصية الدونكيشوت نائمة؛ لأنَّها لن تنجح إلاَّ في حرب وهمية مع الطواحين... تحس بالتعب فلا تجيب، تستأذنه في الانصراف، يقدم لك يده مصافحًا وهو ينصحك من جديد أن تفكر، وألا تخشن رأسك، تبتسم في وجهه، وتنصرف... تقول لي سارة: «استرح قليلاً... لا تعاند كثيرًا»، لكن من هذه الطينة المعاندة والشقية، أعرف الثمن الذي يمكن أن أدفعه مقابل ذلك، أخاف كأي إنسان طبيعي، عاش مرحلة القتل الأعمى في جزائر التسعينيات، يتذكر سقوط المئات من زملائه الكُتَّاب والمُفكِّرين والفنانين والصحفيين، لا لم تبرح هذه الصورة خيالي قطٌّ، وهي كابح جامح، لكنِّي مستعد مع ذلك مقابل فكرتي أن أذهب حتى

الأخير، ولن أندم، أو حتى لو ندمت فيكون ذلك بعد أن أؤدِّي مهامي تلك... صحيح أنَّ التضييق صار خانقًا، حتى الجرائد التي كنت أكتب فيها بدأت تعتذر واحدة وراء الأخرى، كما لو أنَّه نزلت تعليمة من السماء: «إذا نشرتم له مقالاً؛ فلن تحصلوا على أي صفحة إشهار»! الجميع يعتذر، فبدأت أنشر في مواقع افتراضية على النت، صارت بدورها تحجب لأسباب مجهولة، أمَّا داخل الجامعة؛ فالمضايقات زادت شراستها وعُنفها، ومنعت من كل النشاطات الثقافية، والعجيب حتى محاضرة في نادي طلابي حول الرواية البوليسية العربية منعوني من تقديمها بحجة أنَّني أتحدث فيها عن سجون البوليس التي يتعذب فيها المواطنون في تلك الروايات، من يعرفوني جيِّدًا كانوا يحاولون مساعدتي بطرق بسيطة مثل التحدث معي عن ضرورة الحفاظ على حياتي، ومنهم من راح يرغبني في الهجرة وترك الجزائر نهائيًّا، لكن مثل هذا الاقتراح كان مرفوضًا تمامًا، وكنت لمن يسألني لماذا لم تهاجر حتى الآن أردد ذلك المثل الشعبي المعروف: هنا أيموت قاسي.

لم أتصورها معركة شريفة، ومع ذلك كنت أحاول في كل هذا أن أظل واقفًا، كنت خائفًا فقط أن يعتدوا على سارة، أن يصل بهم الشر أن يهددوني بها، هنا كنت حتمًا

سأضعف، وأفقد كل شجاعتي، هنا كنت حتمًا سأتراجع، ولحسن الحظ لم يحدث هذا، ولكن حدثت أشياء أخرى معكرة، وكنت أدرك في نقطة غائرة في روحي أنَّ خطئي مع سميرة قطاش في سيارتي سأدفع ثمنه لاحقًا بشكل ما، وهذا ما حدث.

وصلتها الحكاية... لا أدري من نقلها لها... وجدت سارة مكتئبة ومنهارة عندما عدت في ذلك المساء للبيت... لم ترغب في مكاملتي، حاولت دون جدوى، لم ترغب حتى أن أضع يدي على ظهرها، أدركت أنَّها عرفت، أنَّه حان وقت الحساب والعقاب العسير... صمت، أخرجت قنينة نبيذ كنت أخبئها ليوم سعيد في خزانة ملابسي، فتحتها وبدأت أشرب، وأنا أتساءل إن كانت ستسامحني... سارة! هل يمكنك أن تغفري لي هذا الذنب... أنا الخائن... أنا الذي بسبب لحظة عاثرة سأفقدك اليوم... لم أحاول أن أعرف من أخبرها بالقصة، من أوشى بي لها؟ وما الفائدة، الحكاية وصلت والوشاية نجحت، إحساسي أنِّي سأفقد هذا المرأة! العشق صار حقيقة وليس سرابًا يحسبه الظمآن ماء... كنت أعرف من أي نوع نسائي هي، لن تقبل أبدًا عثرة من هذا النوع، كل شيء تدمر الآن، سندي الوحيد الذي كنت منه أستمد قوتي تضعضع، ستبكي وتذرف دموعًا كثيرة وستقول

لي حتما: أقبل كل شيء إلاَّ الخيانة، أو ربما لــن تقــول أي شيء، لن تمهلني حتى أن أدافع عن نفسي، لا يحق للخائن أن يقول شيئًا، أمَّا الاعتذار فلا معنى له، ستقول إنَّه إن لم يستطع الحب أن يكون مناعة ضد إغواء الآخر؛ فلا قيمة لـــه، إن لم يستطع الصمود في عرين الأسد؛ فهو بلا قيمة، كنت أحب سارة؛ لأنَّها مثالية في الحب، وتعتقد في مثل هذه الأشياء التي لم يعد يؤمن بها باقي الناس، وكانت تحبني؛ لأنَّها كانت تراني بتلك العيون المثالية، وتراني مثلها مثاليًا في العواطف، مثلما أنا مثالي في المواقف والنضال ولا أتراجع قيد أنملة عما اقتنع به، وأعتقد أنه صحيح.

كم وددت في تلك الدقيقة من العمر لو يرجع الزمن إلى الوراء، فلا أعرض على سميرة أن أنقلها بســيارتي إلى محطــة خروبة للحافلات، لو -هذا مستحيل- في داخلــي كنــت أعرف أني ذاهب للخطيئة، وبشكل ما كنت أرغب في تلك الخطيئة، سميرة لم تفاجئني، ولكن فاجأتني نفسي أنَّها فكرت هكذا، وتركت نفسي تنقاد تلقائيًّا وكأنِّي مســلوب الإرادة إلى ما وقعت فيه.

ماذا أقول لسارة الآن؟! بعد سنتين زواج فقط! ها هي تبكي في غرفة النوم، ترفض أن أمد لها يدي، أن أقــدم لهــا اعتذاراتي، أن أواسيها، أو حتى أعزيها في مُصابها فيَّ، لماذا لا

تتركني فقط أعانقها من جديد، أبثُّ في قلبها ما يكتوي بـه قلبـي من نار تحرقني الآن، هي تعرف ذلك، تدرك ذلك، أنَّ مثل هذا الخطأ مجرد قوس أغلق بسرعة، هذا الخطأ لا يغتفـر ولكنَّه عابر، لماذا أبرر جرمي وأقلل من أهميته؟ ماذا لو فعلت سارة ذلك؟ هل كنت سأسامحها بدوري، ألن أشـعر بـأنَّ السماء سقطت فوق رأسي، ألن أشعر بأنَّهـا لا تسـتحق حبـي لها، إذن ما الحاجة إلى أن أعكر صفوها المُعكَّر الآن، أن أحاول التخفيف من لحظتها الحزينة، تراجعت إلى الخلف، غرقت في الشرب داخل المطبخ، وبدوري ذرفـت دموعًـا كثيرة.

* * *

كان يمكنني تقبل الهزيمة من الجميع، ما دامت خضـت المعركة بقلب شجاع وموقف نبيل، لكن مع سارة، كـان الأمر سيئًا وبلا نُبل! كانت معركة تتجاوزني بالفعل، صرت صغيرًا أمامها، وضعيفًا للغاية، أخبرتها في الغد من تلك الليلة الظلماء والمشؤومة، أنَّني لا أستطع أن أعيش من دونها، أنِّـي نادم على ما فعلت، أنَّني لا أستحق تقديرها واحترامها، أنَّني عكس ما كنت أظنُّ –حتى أنا– في نفسي، مجرد رجل مثـل باقي الرجال الذين تضعفهم الرغبة، فيقعون فيها، وأنَّني مدرك

لحجم المأساة والحزن الذي سببته لـــك، مـــدرك لـــذلك، ومتأسف! لكن متأسف كلمة تافهة لا تقضي على البلاء، لا تعيد مياه النهر إلى مجاريها، تأكدي مع ذلك أنِّي مخلـــص في مشاعري لك، أنِّي حقًّا لا أستطيع أن أعيش من دونـــك... أنِّي...

رفعت بصرها نحوي ورمقتني بنظرة هـــي مـــزيج مـــن مشاعر كثيرة، ولكن كانت فيها خيبة عميقة وبلون الشمس وهي تغرب ثم قالت: لا يهم كل ما تشعر به من نـــدم، أو تقوله لي الآن من كلمات... لكن طبعي هكذا... لن أستطيع مسامحتك، ولا أن أستمر في الحياة معك... سيذهب كلٌّ إلى طريقه...

هكذا انتهت العلاقة فجأة مع سارة... أخـــذت وقتًـــا طويلاً قبل أن أتعايش مع الحقيقة كما تجلَّت أخيرًا في صورها المرعبة في حياتي، فقدٌ أليم لامرأة كنت أحبها بجنون عارم.

* * *

حاولت أن أعوض خسارتي الفادحـــة تلـــك بنضـــالي السياسي، أصبحت أكثر إزعاجًا وقلقًا، فزاد غضبهم مـــني، ومضايقاتهم لي، وزاد تحرشهم بـــي، لكن كانوا يمتنعون عن أذيتي، لا أدري لماذا لم يفكروا في تدبير مقلـــب لي، كـــانوا

يبعثون لي نساء للتجسس عليّ يتحدثون معي في أمور السياسة والبلد، أقول لهم نحن في الخراب لم يعد هنالك شيء يحتمل، كان يمكن الصمت لو كنت أشعر ببصيص أمل ولكن مرحلة ما بعد الإرهاب نعيشها في الحضيض، بلد جريح ومتألم من حربه الأخيرة و لم يتشافَ بعد... كنت أرغب في أن أوصل لهم رسالتي أنّني أدافع عن فكرتي الجميلة لهذا الوطن، وأنّني لا أنتقد لأدمر هذا البلد الرائع؛ بل لأدمرهم هم... هم الذين أفسدوه ودمروه ويمصون روحه اليوم كخفافيش ليلية قذرة.

كنت أرفع صوتي عاليًا حتى يسمع كلامي كل من يكون حاضرًا... أنَّ صادق سعيد لن يخون ولن يبيع... كنت أرفع من سقف حريتي إلى الأعلى، وأنا أدرك أنّي مجروح في صميم قلبي من فراق سارة وذهابها بعيدًا عني... وأنَّ كل هذا كان محاولة للتعويض بشكل ما عن تلك الخسارة، وشوق العشق الملتهب دائمًا، تعويضًا غير موضوعي حتى لو كان يشكل قناعتي العميقة، ويدخل في مبادئي التي لم أحِد عنها قطٌّ.

مرة في حانة بشارع محمد الخامس، كانت حانتي الأخيرة بعد غلق عدد كبير من الحانات بالعاصمة، وفي مدن كثيرة تم منع الخمر والشرب تمامًا على المواطنين، في إطار

موجة دينية جديدة، أدخلت المجتمع في نفق ظلامي آخر بعد أن عانينا الويلات من ذلك الظلام الذي سود قلوبنا وحياتنا لعقد بأكمله... كانت الجزائر التي أحبها بـدمي تنـهار في مستنقع آسن، تدخل في حالة من التعفن والفساد، تسقط من علو شاهق، كانت تمثل -ليس لي فقـط ولكـن لشـعوب مقهورة كثيرة- ثورة كبيرة، مقاومـة عنيفـة، تضـحيات جسيمة، حلمًا لم يستطع التحقق بعد...

في تلك الحانة استحضرت حياتي منذ الطفولة... كيف وصلت إلى هذه الحالة؟ كيف صارعت من أجـل تحققـي، كيف نشدت المستحيل وحققت ما استطعت إليه سـبيلاً... شريط عاد من الوراء... مسار حالم وبائس ومليء بالعثرات والثقوب... حتى سمعت صوتًا ينادي عليَّ؛ التفت إلى مصدره فوجدت مجموعة من الرجال يرتدون بدلات سوداء، سمعتهم يقولون لي: تعالَ معنا...

ابتسمت بسخرية في وجوههم... اتركوني على الأقـل أكمل جعتي...

هيا لا تتكلم كثيرًا...

خالطني شعور غريب وسوداوي أنِّي لن أعود إلى هـذه الحياة التي عرفتها... أنَّني من الآن سأغيب... دون أن أعرف في أي مكان سأغيب.

فاروق طيبي

«الحب إعصار هائج، له قـوة المطـر الغزيـر عنـدما يسقط بخشونة مصحوبًا بعاصفة رعدية تنذر بخطر زاحـف، لا تنفع معها حصوننا البشرية، يضـعك أمـام احتمـالين لاثالث لهما: إما اقتحامه مهما كانت الكلفة التي سـتدفعها، أو الهرب بجلدك، والاختفاء في مكـان آمـن حـتى تمـر العاصفة».

تذكرت هذه العبارات التي كتبها صادق سعيد في رسالة مطولة يشرح لي فيها كيف وقع في حب امرأة اسمها سـارة حمادي...

كان ذلك في نهاية الثمانينيـات، لقـد نـال شـهادة الدكتوراه ببحث حول «الحداثة بين الشعراء والمفكرين» بين موقف الشاعر والمفكر الاجتماعي من الحداثة، في ذلك الزمن الذي لم تكن الحداثة قد زاحمت بعد تلك التيارات المسيطرة كالواقعية بألوانها السياسية المختلفة.

كنت أيامها على وشك إتمام رسالتي الجامعية أنا أيضًا لمناقشتها قبل حلول عطلة الصيف، كانت دراستي حول «مفهوم الرواية عند كونديرا بين التنظير والممارسة»، وسأعترف بأنّ صادق سعيد هو الذي هداني إلى عالم هذا الروائي التشيكي منتصف الثمانينيات، كصوت متميز في الرواية الأوربية الجديدة، كان لا يمل من الحديث عن بعض رواياته كـ **المزحة، والحياة هي في مكان آخر، وكائن لا تحتمل خفته**، حتى أنّني عشقت عوالمه السردية وطريقته في الكتابة من خلال الحديث المشوق لصادق عنه، والذي كان عاشقًا كذلك لعوالم فرانز كافكا في نصوصه التي حسبه «تضرب الوعي البشري بمطرقة من حديد»، وأنّ روايات أمريكا اللاتينية، والتي كانت في السنوات الأخيرة عشقه المفضل، هكذا الصادق ظل عاشقًا للأدب بلا منافس، وكنت سعيدًا أنّني أقاسمه بعض هذا الحب والشغف، تعارفنا الأول في الجامعة بمعهد الأدب، حيث بالصدفة سجلنا في نفس اليوم، وكان يكفينا دردشة صغيرة حتى نرتبط بملح الصداقة منذ ذلك الحين.

ولد الصادق سعيد في حي فقير بالعاصمة اسمه «لامونطان»، أو هكذا ينادي عليه الجميع، بينما ولدت أنا في بلدية فقيرة بولاية المدية اسمها «السواقي» قبل أن نرحل عنها

إلى مدينة أكبر اسمها بني سليمان، حيث قضيت فترة طفولتي الكاملة وبداية مراهقتي، ودرست بها كل مراحلي التعليمية الابتدائي، المتوسط، والثانوي، كنت حريصًا على التعلم والنجاح؛ لأنَّ والدي الذي كان يعمل حارسًا بلديًّا حرص على دفعي لذلك، ففي السبعينيات كان هناك اعتقاد راسخ أنَّ الدراسة هي الطريقة الوحيدة للنجاح في الحياة والحصول على عمل ومكانة محترمة في المجتمع، خاصة بالنسبة للجيل الذي ولد قبل الاستقلال وحرم من التعليم وعاش طويلاً تحت ظلم الفقر والاستعباد الكولونيالي كان ينظر للدراسة على أنَّها شيء جلل، وأمر مقدس حرصوا على أن يتعلم أولادهم بتضحيات جسام من طرفهم، كنت صغير العائلة ومدللها أيضًا، وكان لي تميز الدراسة على غرار جميع أخوتي الذين كانوا يعملون ويساعدون في ميزانية العائلة، ولقد نجحت بتفوق، ورغم أنَّ والدي كان يعتقد عندما دخلت الجامعة أنّني سأدرس طبًّا أو هندسة؛ إلاَّ أنَّ ميولاتي الأدبية كانت هي الأقوى، وفرضت عليَّ الاختيار المناسب لذلك؛ فرحت يوم تعرفت على الصادق، حيث بعد أن قمنا بالتسجيل الإداري خرجنا وتجوَّلنا بالقرب من الجامعة المركزية، كانت ساحة أودان تظهر لي كمدينة حلم غير حقيقية، مدينة كولونيالية كبيرة، متاهاتية، لا تعرف رجلك فيها من رأسك أنا القادم

من الريف الجزائري، الحياة تبدو مختلفة والناس مختلفون والوجوه والملابس وطريقة الحديث وأشياء كثيرة كان عليَّ التعايش معها بسرعة، وكان الصادق ابن حي «لامونطان» أو «الجبل» هنا ليساعدني على ذلك، رغم أنَّه أخبرني بدوره أنَّه يكتشف وسط الجزائر العاصمة مثلي؛ لأنَّه وُلد في تلك الأحياء الهامشية التي تعيش بعيدًا عن المركز العصبي للمدينة...

عندما طلبت الصادق في الهاتف كي نلتقي، كنت أعرف أنَّني سأبوح له بسري الوحيد الذي لم أفصح له عنه من قبل، كنت مترددًا قليلاً، لكن كان الألم يعتصرني بقوة من الداخل، كنت بحاجة إلى الحديث والبوح للصديق الوحيد الذي بقيت علاقتي به صامدة ومتينة منذ بدأت إلى اليوم.

لقد أخذني بسيارته التي لم يغيرها قطٌّ مع حمى تغيير السيارات التي سكنت الجميع في السنوات الأخيرة، حتى إنَّ بعض الأساتذة الجامعيين صاروا يُعرَفون وينادى عليهم بأسماء سياراتهم، وكان هذا يثير سخريتي كثيرًا، وإن كنت متفهمًا أنَّ الحرمان الطويل من بعض مظاهر الرفاهية التي فرضت عليهم سنوات طويلة هي التي جعلتهم فجأة بعد زيادة قليلة في رواتبهم إلى أن يهجموا على الأشياء المادية التي يحققون بها

تميزًا شكليًّا في مجتمع صار يميل إلى الواجهة الخارجية أكثر ممَّا يهتم بمحتوى الإنسان وقيمته الروحية أو المعرفية.

عندما شاهدته أحسست بسرعة أنَّ شيئًا ما سيئًا حدث له، وكنت بدوري أريد أن أخبره عن شيء سيئ، كنت أتظاهر بقوتي الخارجية، هو يراني بهذا الشكل، ولكن من الداخل كانت روحي منهارة وقلبي منسحق، وكانت حياتي تبدو لي في أسفل سافلين على شفا هاوية، قريبة من نهاية مؤلمة، أو هي في الخط الأخير من تلك الخاتمة الحزينة.

أخذني كالعادة بسيارته الغولف الحمراء اللون في رحلة ساحلية جميلة من حي سانتوجان، حيث صار يسكن إلى غاية عين البنيان، ثم أكملنا الطريق إلى سطاوالي فسيدي فرج، وعندما وصلنا إلى ذلك المركب السياحي الكبير الذي لم يبق من أمجاده القديمة إلا ذكريات غابرة و لم تعد حاضرة في بال أحد، قال صادق ضاحكًا:

- «لم يبقَ من سيدي فرج أي شيء يستحق الانتباه!».

أجبته من دون تفكير:

- «سنوات الإرهاب دمرت كل شيء، وحطمت البشر والحجر على السواء».
- هل تعرف بأنِّي مكثت فيه سنتين في تلك الفترة؟
- نعم أخبرتني بذلك لكن لم تشرح لي التفاصيل؟

- لقد لجأت إليه بعد أن وصلتني مرة رسالة تهديد من جماعة مسلحة، في البداية لم آخذ التهديد بجدية، لكن كان لي زميل صحفي يعمل في جريدة يومية ما أن اطلع على رسالة التهديد حتى ترجاني أن أحمل أمتعتي وسيتكفل هو بتدبير إقامتي في فندق المنار بسيدي فرج مع كل الصحفيين اللاجئين في ذلك المكان... لقد أخبرني أيضًا أنَّ زميلاً له يعمل في الجريدة وصلته رسالة بنفس اللغة والمحتوى، وهو أيضًا لم يأخذ التهديد بجدية فما كان إلاَّ أن قُتل بعدها بأسبوع فقط، وهنا، أصدقك القول ارتعبت كثيرًا، نعم ارتعبت، حينما تواجه المدفعية القلم لا يستطيع القلم فعل الكثير...

- لا آسفُ حقًّا على تلك السنوات اللعينة، لقد حطمت فينا الشجاعة والقوة والإرادة...

- نعم صحيح، لقد كانت التكلفة غالية، ومرات أقول لقد نجونا بأعجوبة، أو ضربة حظ، ما كان يؤلمني أكثر أني لم أعد أعرف ماذا أفعل؟ تغيرت يومياتي بالكامل، الذهاب للجامعة صار خطرًا، اللعنة على المجرمين الذين أدخلونا في تلك الدوامة...

ركن السيارة في الساحة الكبيرة التي تقابل الفندق، شعرت أنَّ الصادق وهو يخرج من سيارته يستحضر تلك السنتين التي قضاهما هنا بأسى وفرح ممزوجين ببعض، ذكريات حزن وعلاقات مبهجة بالتأكيد، نقاشات سياسية لا تتوقف ليلاً في أوضاع البلد حتى الفجر... وألغاز كثيرة لم تفكك في تلك الدوامة حتى اليوم...

وصمت بعض الوقت ثم قال لي:

- «أتمنى أنَّ الحانة التي كنت أشرب فيها لا تزال موجودة!».

وسرنا قليلاً حتى وصلنا إلى المكان المطلوب، وفرح أن وجد نفس النادل الذي تعرَّف عليه بسرعة وراح يسلم عليه وهو يسأله عن الصحة والحياة، ثم جلسنا في الزاوية، كانت الحانة شبه خالية، إنَّها الثانية ظهرًا، عادة ما يبدأ التردد في المساء، ويستمر إلى وقت متأخر من الليل، ثم يذهب كل عصفور شارد إلى وكره.

في البداية رحت أسأله عن حاله وظروفه، فقال لي ببعض الحسرة:

- «أشعر أنَّني كبرت، أصبحت عجوزًا، ولكن كما تعرف، الأدب فقط يعيد تغذية الدم في شراييني، يكفيني قراءة رواية جيدة أو كتاب قيِّم حتى تعود

الروح إلى قلبـــي، لكنني يائس، يبدو بلدنا اليـــوم وكأنه في منحدر خطر ونحن لا نستطيع فعل شـــيء لتجنبه!».

- نعم؛ أتفهمك جيدًا، الأمور تسوء يومًا بعد يوم...
- وأنت أخبرني عنك؟
- لا شيء جديد، فقط كنت أحلم بـــالزواج مثلـــك والاستقرار مع امرأة أحبها.

عندما ذكرت الزواج تغضن وجه الصادق ســـعيد، أو هكذا أحسست، كما لو أنَّ العبارة لم ترُقْ لـــه لحظتـــها؛ فاضطررت أن أستفسر منه:

- «كيف هي سارة... هل لا تزال مشاغبة مثلمـــا في السابق؟ وأين الأطفال؟ كيف لم تفكرا في إنجـــاب طفل واحد...؟».

ابتلع آخر قطرة في كأس الجعة، ثم قال محمر العينين:

- «هي لم ترغب قطٌّ في أن تكون أُمًّا، وأنا كانت لي مشاغلي الكثيرة التي تمنعني من التفكير في ذلك...».
- نعم أذكر فلسفتها في الأمومـــة، أنَّهـــا اضـــطهاد للمرأة...
- نعم صحيح، كانت تقول هذا، وكانت تقول أشياء كثيرة فقط لتعرف رأيي في الموضوع، لتتأكد مـــن

فكرتي وأنا لم أكن أعترض عليها من مبدأ الحريـــة، وحقها في أن تكون ما تريد...

- وأين وصلتما الآن؟ أشعر بأنك حزين...
- لنترك هذا الموضوع لمناسبة أخرى، وأخبرني أنت... لماذا لم تجد امرأة بعد؟ ماذا تنتظر يا رجل... أم مـــا زلت تسرق المتعة من بيوت المواعيد... أخـــبرني... شعرت أنك كنت حزينًا أمس عنـــدما كلمـــتني في الهاتف...

كانت لصادق سعيد هذه القـــدرة علـــى اســـتدراجي للحديث، مع أنه كان يتمتع بخصلة نادرة هو عدم الإلحـــاح في الطلب، يُرغبك في الحديث، وإن لم يجد عندك أي رغبـــة يتركك لحالك، يُشعرك بطريقته الخاصة أن الأمر غير مهـــم، أنه يمكننا حتى أن نبقى جالسين في هذه الحانة التي تطل على الميناء الصغير لسيدي فرج ونسبح في دواخلنـــا كمتصـــوفة يبحرون في عوالمهم الحميمة دون رغبة في الكلام.

كان البحر بالفعل يهدئني إلى حد بعيد، وعندما أنظر إلى تلك الزرقة الشاسعة ينتابني إحساس عميق بالصفاء، كما لو أن ذلك المنظر هو مفتاح سعادتي، وكثيرًا ما تساءلت كيف أسكن في مدينة ليس فيها بحر، ليس فيها هذه الزرقة المتلألئة، مدينة مغلقة على نفسها، كالمدية، لا تشعر فيها أن فســـحة

المغامرة حاضرة، إنها كالقفص الذي يُحكم قبضته عليـك، ومع الوقت يصير شبيهًا لك، ولكن كـان للأمـر علاقـة بالجذور، بالأرض التي نكبر فيها، تزرع فينا منذ الصغر علاقة سرّية، عميقة، لا نفهمها جيدًا، ولكنـها تمـارس تأثيرهـا السحري على ذاكرتنا ووعينا.

وجدت صعوبة في الحديث عنها، خاصـة أني كنـت متأكدًا أنه يعرف سميرة قطاش أحسن مني، كان يعرفها سابقًا عندما كانت تدرس عنده في الجامعة، بل هو الذي عرفني بها، قال: إنَّها طالبة متميزة، وذات مستقبل نـاجح، وسـتكون زميلة رائعة لنا عندما تناقش أطروحتها، وسندًا لمن يريـدون تغيير الجامعة إلى الأحسن، وعلى الرغم من عـدم تفـاؤلي بالتغيير إلى الأحسن، خاصة في تلك الفترة الجهنمية التعيسة، إلا أنني رحبت بها كما يجب، كان لها وجه يستلطف من أول نظرة، سوداء الشعر والعينين، بنظرة حالمة، أو تشـعر بهـا كذلك، صورتها كما رأيتها في ذلك اليوم انطبعت في ذهـني كحلم جميل، يخلد فيك فترة من الزمن ولا يريد مغادرتـك، وبالفعل لم تغادرني الصورة ليال بأكملها، وصرت أتلصـص عليها في الجامعة دون أن تشاهدني، وأفرح عندما لا تكـون مع أحد، وأغضب عندما أشاهدها مـع طالـب أو أسـتاذ جامعي تتبادل أطراف الحديث، وسألت نفسي لماذا أهتم بها

بهذا الشكل؟ وإن كنت معجبًا بها لماذا لا أصارحها بـــذلك؟ فإن قبلت فهذا هو المطلوب وإن رفضت ســتكون الراحــة والسلامة، لكن خجلي منعني من ذلك، لقد كنـــت دائمًــا خجولاً ولا أعرف كيف أتصرف مع النساء، كنت أحتـــاج دائمًا إلى مساعدة خاصة من طرفهن، يجب أن تأتي المبـــادرة منهن ثم يسهل عليّ فعل الباقي، ولهذا رحت أنتظر أن تنتبــه لي سميرة وتقبل عليّ، سيكون سهلاً بعدها إغواؤهـــا بـــأي شكل، أنا فقط أحتاج للخطوة الأولى التي تنزع عني خجلي البدوي، ثم أنطلق كالسهم المارد كما يقولون...

كان الحظ معي ذات يوم، وهي تشـــاهدني في إحـــدى المكتبات بشارع العربـــي ين مهيدي، كنت أقـــتني بعـــض الروايات الفرنسية الجديدة، اقتربت وسلمت عليَّ مبتســـمة وكأنَّها على موعد غرامي، فرِحة بالحياة والوجـــود، وأنـــا بطبعي شخص مبتسم، بل أبتسم أحيانًا مـــن دون ســـبب، البعض يعتبروني أبلها، لكني لا أبالي بما يتفوه به الحمقى عني، استفسرت بعدها عن العناوين التي اقتنيت وبدوري ســـألتها عن الكتاب الذي تبحث عنه فردت كتاب لابن عربـــــي، قلت لها بسعادة:

– «كم هو رائع هذا المتصوف، الذي رفع الروحانيـــة إلى أعلى قممها».

فضحكت وهي تمازحني حتمًا:

- «كان يعشق النساء أيضًا وتزوج العديد منهن».

وأضافت كذلك:

- «ودافع عن النساء كثيرًا، وجعل من الأنوثة مقامًا مقدسًا».

أومأت بالإيجاب وأنا أتملى وجهها... جاءتني الفرصة أخيرًا، ولن أضيعها:

- «هل نذهب لمكان ما ونشرب شيئًا؟»

ردت بحماسة أفرحتني:

- «نعم؛ كما تريد ليس عندي شيء أفعله الآن...».

***

عندما غادرت الجزائر العاصمة لأستقر في ولاية المدية كنت تعيسًا للغاية، شديد الإحباط، وأحس بكثير من الضعف والهشاشة، الحق أني لم أكن قويًّا في أي وقت من الأوقات، كنت أحسني دائمًا ورقة مهددة بالسقوط لأبسط هبة ريح تعصف بها، لكني صمدت، لا أدري كيف، وبقيت رغم كل ذلك متماسكًا، وكان قرار ترك العاصمة على الرغم أنه كان بإمكاني الحصول على وظيفة بالجامعة مثل الصادق ونصبح زملاء فعليين، لكن كانت رغبتي قويّة في الابتعاد عنه حتى

أحافظ على صداقتنا، ربما حملته في النهاية سبب نكساتي العاطفية، أو كنت أشعر بقربه أنني سأصبح مجرد ظل تابع، هو يفرض حضوره بقوة شخصيته وجاذبية كلامه وثقافته الواسعة، حتى النساء كن ينجذبن له مثل الفراشات اللواتي يحطن بالضوء حتى يحترقن به، صحيح أنه غالب الوقت لا ينتبه لذلك، ولا يهتم بمشاعرهن، بعض الطالبات اللواتي وقعن في حبه كرهنه فيما بعد كرهًا شديدًا؛ لأنَّه لم يعطهم أي فرصة للتحرش به، كان حبه القويّ موجهًا لسارة حمادي، أما لماذا هي بالذات؛ فلست أدري! هو لم يشرح لي لماذا اختارها قلبه من بين كل اللواتي اقتربن منه، ووقعن في حبه، كان يتحدث عن عاطفته المتدفقة وشعوره المنجذب نحوها، لقد كانت جميلة بالفعل، لكن لا أظن أنَّ الجمال هو الوحيد الذي لعب دورًا في ذلك الحب، ربما السبب الحقيقي كما أدركت ذلك بنفسي هو أنها على عكس كل الفتيات والنساء اللواتي حاولن الاقتراب منه كانت هي الوحيدة التي لم تسعَ لذلك، بل لم تهتم به كرجل يمكنها أن تعشقه، ربما لعب ذلك دورًا خفيًّا دون شك، هو لم يقل ذلك لا لي ولا لنفسه؛ لأنَّه شخص يعتز كثيرًا بذاته، ولا يحب أن يضعها في موضع مهين، حتى في الحب، وخاصة ربما في الحب، لكن ذلك الصد العنيف هو الذي جعله يقع في حبها، ثم تقع هي بدورها في حبه، ويحدث

بينهما تلاقٍ غريب وانجذاب أعمى لبعض، فيفقد هو شهيته في كل النساء، وتفقد هي رغبتها في كل الرجال، تلك المعجزة أظنها تحدث مرة واحدة في جيل بأكمله؛ لأنَّ مثل هذا النوع من الحب الذي يصهر قلبين في قلب واحد يشبه الأسطورة أو المعجزة...

كنت أعرف طبعًا سيرة الصادق سعيد العاطفية، وكل علاقاته النسوية قبل سارة حمادي، كان متقلبًا ولا يستطيع البقاء مع أي واحدة مهما كانت جميلة، أو حتى مثقفة فترة تفوق الستة أشهر ثم يغادرها، فارًّا بجلده، كان يشبه كازانوفا في إغواء النساء ثم تركهن؛ لأنَّه بحسبه لا يجب أن يبذر طاقته الكاملة في العشق ومتطلباته، لكن ما أن ظهرت سارة حمادي حتى انقلب كيانه بكامله وحدث الزلزال في داخله، فلم يعد يستطيع فراقها للحظة واحدة...

كثيرًا ما تمنيت هذا العشق، وطلبته؛ فالحب إمَّا أن يكون بهذا الشكل الانصهاري أو لا يكون، لكن، سوء الحظ، أو المكتوب، أو لا أدري كيف نسمي هذا النحس لم يُتح لي مثل هذه الفرصة كي أسعد بدوري في عالمي المنكوب، أو الذي كنت أراه كذلك.

لقد طلبت هذا الحب من سميرة قطاش، بعد لقاءات كثيرة حدثت في المقاهي والنوادي، وحتى مرة في حانة كان

يؤمها الطلبة والأساتذة على السواء، دخلت معي مبتهجة أنّها تقتحم عالم الذكورة في صورته الهذيانية وهم يشربون، بهذا الوصف عبرت عن سخطها وإعجابها بالمكان، مع أنّ تلك الحانة كانت النساء يقتحمنها كذلك، بعضهن للعمل باحثات عن زبائن للمتعة، والبعض الآخر من المثقفات اللواتي قطعن علاقتهن بالأصول والموروث، يعشن تجربة الحياة المفتوحة في المدينة، طالبات يساريات أو مناضلات أمازيغيات أو فتيات لا يعبأن بالقيل والقال، يمارسن الحياة بكل جنون وحب...

مع الشرب انفتحت شهيتي للإفصاح، وكانت هي بخبث غريب تستدرجني لكي أتحدث، المؤلم أنها بدل أن تسألني عني أنا راحت تسألني عن صديقي الصادق سعيد... كأنّها تريد أن تعرفه جيدًا، ورغم أنّني شربت كثيرًا وهي لم تشرب إلا كوب حليب، فظلت يقظة بينما كنت أنا أتدحرج شيئًا فشيئًا داخل نشوة غامضة وفيها نقاط حزن سوداء مؤلمة.

قلت لها: «ألم تفهمي بعد؟!».

– ماذا أفهم؟

ردت مستغربة

– أنّي أريدك...

– تريدني كيف؟ لم أفهم.

– أنّني أحبك.

صمتت فجأة، وإن لم يظهر على وجهها أي علامة للدهشة، كانت تدرك حتمًا أنّني معجب بها على الأقل، استحضرت في ذهنها قصص حب عاثرة حتمًا، كلما أقدمنا على شيء جديد نستحضر خيبات حبنا القديمة.

قلت لها من جديد:

- «فيك كل مواصفات امرأة أحلامي».

انفجرت مقهقهة وقالت بصوت مرتفع:

- «امرأة أحلامك دفعة واحدة...؟!».

استفزتني نبرة السخرية في ردها، صمت، انكمشت بداخلي، كانت نشوة السكر قد بلغت ذروتها لكني بقيت متماسكًا، لم يهزمني الشرب يومًا، حتى الصادق سعيد كان يحار في أمري وهو يسألني: كيف تشرب كل هذا العدد من الجعات ولا تسكر أيها اللعين لا بُدَّ أنّك ولدت في بئر خمر...

الغريب أنّني رغم كل القرائن التي شاهدتها لم يذهب ذهني أنّها تحب الصادق سعيد، ثم ظهرت لي الحقيقة عارية، كل هذا الوقت الذي كنت أسعى فيه للقبض عليها كانت هي في الحقيقة متعلقة بذلك الرجل، والذي حتمًا تراه رجل أحلامها...

استعدت قوة تركيزي للحظة، حاولت أن أغير الموضوع، لكن لم أفلح، لقد بدا عليَّ التوتر وبعض

الاضطراب نهضت وذهبت للمرحاض، تبولت وغسلت وجهي، وعدت فوجدتها صامتة، وغارقة في عالمها الخاص، وغير مبالية بالحانة وضجيجها الصاخب، شاهدتني أجلس، ثم قالت لي مبتسمة هذه المرة:

- «لم أرغب في الإجهاز على أحلامك!».

وأضافت بعد أن منعت نفسي من التعقيب على كلامها:

- «الحقيقة أنك رجل يستحق كل الحب».

لقد بدأت لعبة العطف، والشفقة التي أمقتها.

كل ما هنالك أنَّني أحتاج بعض الوقت لأفكر.

كان يكفي أن تلقي على مسمعي هذه الجملة الأخيرة لأستعيد أنفاسي، بعد أن ظننت أن كل ما تمنيته وحلمت به خلال هذه الشهور ذهب أدراج الرياح، شعرت كما لو أن سميرة تفتح لي في ظلمة الليل نافذة يطل منها نور مضيء... الرحمة السماوية تكلمت لصالحي، لقد انفرجت أساريري واشتعلت عينايّ بالفرح والسعادة...

- طبعًا لك كل الوقت... اعذريني ربما كنت متسرعًا...

- لا أظنك تسرعت... في هذه الأمور... الإنسان يقول ما يحس به، ولا يهمه النتيجة.

- بلى همني النتيجة، لقد كدت أفقد عقلـي حينمـا فكرت أن الأمر لا يهمك على الإطلاق.
- لم يكن قصدي ذلك، ثم ستعرفني وستدرك أن الماضي يلعب دورًا مؤثرًا على حياتنا، لم أعد تلك الفتاة المندفعة التي تصدق من يقول لها أنت امرأة أحلامي.
- كنت صادقًا حقًّا، و لم يكن الأمر حيلة لإقناعك.
- نعم متأكدة من صدقك، أو لأقل إن هذا ما جعلني أطلب وقتًا للتفكير، يجب أن أفكر، عادة أنا مندفعة، وبسبب هذا الاندفاع أقع في مطبات مؤلمة، لست ناضجة بما يكفي لكي أعرف ماذا ينتظرني غدًا، ولكن على الأقل القدرة على التفكير ما زالت متوفرة لديّ.
- فكري يا عزيزتي الوقت الذي ترغبين، سأكون معك طوال هذه الفترة، أريد أن أعرف عنك كل شيء، وأن تعرفي عني كل شيء... أريد أن أعيش معك أجمل قصة حب على الأرض.

لا أدري لماذا ابتسمت بتلك الطريقة التي هي مزيج من فرح وحزن، أمل ويأس، حتى أنّي شعرت بالأسى يغزو قلبي، فكرت فقط أنّها متألمة من الماضي ولكن كان خوفي

الكبير أن تكون مغرمة بالصادق سعيد، ولأنَّه حب مستحيل لا تريد أن تقفل الباب في وجهي، وأتحول حينها فقط إلى ورقة إنقاذ تسعفها في لحظات الفقد والهجران...

* * *

فجأة دخل الحانة رجل قصير القامة بذقن غير حليق، ونظارات شمسية تخفي عينيه، يرتدي بدلة رمادية، كرافات سوداء، شخص لا يثير الانتباه لولا أن الصادق ما إن شاهده حتى راح يتابع حركاته من لحظة دخوله حتى جلوسه في مقعد خلفي فسألته:

- «هل تعرفه؟».

رد عليّ وهو يحتسي كاس الجعة دفعة واحدة:

- «لقد كان مسئولاً أمنيًا كبيرًا في التسعينيات، وحتى لسنوات قريبة كان الآمر الناهي في مركز الأمن».
- هؤلاء عادة يعملون في الخفاء، وقلة من تعرفهم مباشرة، أستغرب كيف عرفته؟!
- أظنه صاحب هذا المطعم، يقال إنَّه استولى على عدة مطاعم سياحية في عدة مدن ساحلية، وأنه يملك فندقين أو أكثر، لكن كما ترى هو الآن بلا مسؤولية.

- لقد أعطته المسؤولية كل هذه الأملاك... ماذا يريد أكثر؟
- كما تعلم شهوة السلطة أقوى عند هؤلاء من شهوة المال.
- لم تخبرني كيف عرفته؟
- حتمًا هو لا يذكر ذلك، ولكن مرة كنت مع صديق يعمل مدير جريدة في مطعم «الجنينة»، وعندما دخل حتى.قفز المدير من مقعده وتقدم نحوه يسلم ويقدم مراسيم الطاعة والولاء، وكأنَّه كلب يمسح حذاء سيده، أثارني حينها الموقف المأساوي بصورته المضحكة والمؤلمة أيضًا، وكدت أقوم من مكاني وأنصرف، لكن المدير بسرعة عاد للمائدة مبتهج الأسارير، وهو يقول لي: لولا هذا المسؤول لتوقفت جريدتي عن السحب منذ سنوات، لقد كان يساعدنا بتقديم صفحات إشهارية، إنني مدين له بنجاح الجريدة، صدقني كنت أحترم ذلك المدير حتى تلك اللحظة، وجدت صعوبة في الاستمرار لحظتها في الأكل أو الحديث معه، لم أكمل غذائي، وانصرفت، أما هو فبقي كالصنم لا يعرف سبب انزعاجي ذاك.

توقف عن الحديث ووجه نظرات حقد وشماتة لـذلك المسئول الذي لم ينتبه لحضورنا أصلاً، وجدتها فرصة مناسبة لأواجهه قليلاً، كما لو أن بيني وبينه حسابًا قديمًا يجب تصفيته الآن، أعترف أني مرات كنت أمقت الصادق سعيد، بقدر ما كنت في مرات كثيرة أحبه وأقدره، المهم قلت له:

– ألا تشعر أنَّ هذه الأنفة والالتزام المفرط جعلتك في النهاية غير قادر على الانسجام مع محيطك، غير مؤثر ولا فاعل، لقد اخترت ربما السلبية على الفعل، أقصد المشاركة والتغيير من الداخل.

– لست مثاليًا بالشكل الذي ربما تعتقده فيَّ، لقد قرأت وجربت وعرفت وخالطت وأدركت أنَّ كل شيء بثمن، وليس سهلاً الحفاظ على نزاهة كاملة، لكنِّي حريص على أن يظل عندي ضمير مهما كانت الظروف...

زدت من تصعيد الموقف:

– ماذا تقصد بالضمير... ذلك الذي يجعلك دائمًا على الهامش، ذلك الذي كاد يدخلك السجن عدة مرات.

– ماذا تريد أن تقول لي؟

- لا شيء، لا يهم، أنت حتى اليوم لا تملك سكنًا خاصًّا بك، تستأجر منذ عشرين سنة، ترحل كل سنتين تقريبًا، أظنُّ حتى سارة حمادي منزعجة من ذلك.
- نعم منزعجة وأين المشكل؟ باستطاعتي أن أوفر إيجار سنة، إنَّني مرتاح مع ذلك، لا أريد منهم شيئًا، لا أريد منهم خدمة مقابل شيء لا يريح ضميري، انظر إلى الذين باعوا أنفسهم ماذا ربحوا؟ تقول لي الفيلات... الأراضي... المال في البنوك. هل تعتقد أنَّهم سعداء مع ذلك... لا أعتقد أنَّ السعادة هي في كثرة المال، والنفوذ، والسلطة... ربما هم سعداء في الشر... لا أدري... لكني لا أستطيع أن أكون مثلهم.

قال ذلك بصوت مرتفع، ربما رغب أن يصل كلامه حتى إلى ذلك المسئول الأمني الذي بدا حضوره مزعجًا للصادق، بل مثيرًا لغضب عميق كان يريد أن ينفجر، أن يرميه كسهام نارية تقصف ذلك الوغد، فهمت حينها أنَّه تشنج وصار في حالة غير طبيعية، فتراجعت عن فكرة مواجهته، ودفعه لمزيد من الغضب:

- أفهمك ولكن... أنا أيضًا فكرت مثلك، كنت متأثرًا بك حتمًا، ثم منذ فترة أشعر بأن هذا غير

طبيعي... لماذا لا أكون وزيرًا وأتقاضى أجرًا كبيرًا وأحصل على سكن حقيقي ومجاني... لماذا لا أفعل ذلك... هل ضميري سيوجعني حقًا، لو كنت غنيًا قليلاً... غنيًا وأستطيع السفر إلى أي بلد أريد من مال الخزينة... أكره مرات كيف أن سفرًا لمدة أسبوع لباريس يكلفني كل راتبي، أما بيروت التي أحبها فلا أراها إلا مرة كل ثلاث سنوات؛ لأن راتبي لا يسمح لي... بينما الأنذال الذين تعرفهم يسافرون بأموال الخزينة ويعطون لأنفسهم حتى مصاريف جيب بآلاف اليوروات مرة كل أسبوع.

استغرب الصادق من كلامي، طلب بيرة أخرى، وشربها على الفور ونادى من جديد على النادل وأمره: «أسرع لنا بالرابعة»، أحسست أنّي بعض الشيء تجاوزت حدودي، واستطعت أن أستفزه، أعرف أنّه يكره المنافقين والانتهازيين، منذ كنا طلبة في الجامعة كان له موقف جذري من الذين يبيعون ويشترون في المواقف، من الذين يفكرون في مصلحتهم الشخصية أولاً وينسون كل طموحات الشعب ومصير البلد، كان يقول: «أحتقر الأوغاد الذين بسببهم الجزائر متخلفة، وتعيش في مستنقع الفساد والاستبداد والتهميش والجهل والحقد والكراهية والأصولية والتدين

المغشوش» لقد كنت مقتنعًا بنواياه الحسنة، وسريرته الطيبة، لكني لم أكن أوافقه على راديكاليته، مع أنه لم يفرض عليّ يومًا طريقه، لكني سايرته، تظاهرت ربما أنني شبيهه، أستطيع أن أكون مثله نقيًّا ونزيهًا إلى حد بعيد، لكن في قرارة نفسي كنت أختلف عنه، أفكر بطريقة أخرى، هو يظنني دائمًا مثله، الشخص الذي يمكنه أن ينعكس في المرآة فلا يشاهد فيها إلا نفسه.

كنت أدرك أني أستفزه في تلك اللحظات، ورغم أنه لا يميل إلى الغضب معي، أو لا يترك نفسه تنساق وراء ذلك، فإنَّه بدا مغمومًا ومهمومًا. بدا كأنَّ سواد العالم تكثف في قلبه فجأة، هل هي زوجته سارة حمادي التي تدمي قلبه؟ هل هي رؤية ذلك المسئول الأمني؟ هل كلامي الذي رغبته ضربة موجعة حتى تجعله حتى أنتقم منه؟ لا بُدَّ أن واحدة من هذه الأسباب التي ذكرت، أو شيئًا لا أعرفه جعله يصمت ويدخل في مونولوغ داخلي يتكلم فيه مع نفسه، حول بلد ينهار، مستقبل مخيف، ويتركني وحدي أشرب البيرة مستحضرًا وجعي العشقي المؤلم.

***

ظننت بعد حديثي مع سميرة قطاش أنّني وصلت إلى البداية التي كنت أبحث عنها، وبما أنّها أخبرتني أنّها ستشرع في التفكير؛ فذلك هو النجاح بعينه، و لم أتصور أن تصلني بعد أسبوع فقط رسالة منها، و لم أعرف لماذا لم تقل لي ذلك الكلام مباشرة وفضّلت كتابة رسالة طويلة لي:

«عزيزي فاروق

لقد فكرت في عرضك عليَّ، أعترف أنّك فاجأتني بذلك، رغم أنّي بحاسة الأنثى شعرت بأنَّ هنالك شيئًا ما يجذبك نحوي، طبعًا قد تكون مجرد نزوة عابرة، كثيرون هم الرجال الذين يطنبون في الحديث عن الحب والهوى والعشق، ثم في النهاية يكون مطلبهم الحقيقي المتستر عليه هو الجسد، بيني وبينك هذا لا يزعجني أيضًا، فقبل ذلك بسنوات، تعرَّفت على أستاذ مثقف شاب وسيم اسمه رشيد، فجر فيّ مشاعر الحب القوية، أو هذا ما تصورته، الحب، الكلمة السحرية التي تعشقها أذن المرأة، الكلمة التي تفجر فيها براكين خامدة، التي تحرك فيها أنهارًا من الأحلام والخيالات العذبة، الكلمة التي تظنها تصنع المعجزة، كان كل شيء رائعًا مع رشيد حتى صدمني، الصدمة التي لم أتوقعها على الإطلاق، وبعدها لم أعد أثق، لا يذهب عقلك إلى بعيد، هو لم يخني مع أي امرأة أخرى، وحتى الخيانة كنت سأتسامح معها، ليس لأنّي طيبة

فوق اللزوم، وأحب الخيانات، حاشا لله، لا، مطلقًا، القضية وما فيها، أنّني أستطيع تفهم ضعف الرجل أمام إغراء المرأة الجسدي، ضعف الرجل أمام متطلبات قضيبه، هذا اللعين الذي عندما يثور ينسى الوفاء والحب وكل الكلمات الرومانسية الساحرة التي يقولها لامرأة يحبها، ثم لا عليك، ليس الهدف أن أخبرك بقصتي القديمة، فلقد انتهيت منها منذ سنوات، ووضعتها في ملف وتركته في درج مهمل، ولا أريد العودة إليه، أردت فقط أن أخبرك أنني تغيرت منذ تلك القصة، تغيرت في نظرتي للعلاقة مع الرجل، أي رجل، وليس بالضرورة الرجل الذي قد يعشقني بالفعل، فلن أكون له الصورة التي يريد، أو المرأة التي يحلم أن تكونها؛ لهذا عندما قلت لي أنت امرأة أحلامي، استحضرت ماضيَّ القديم، هذه القصة التي فشلت فيها أن أكون امرأةَ حلمِ رجل كان يريدني زوجة، ولكن زوجة على مقاسه، ووفق رؤيته، لقد شعرت أنَّ الرجل كذب عليَّ؛ لأنَّه لم يتصورني سأعترض عليه، سأنتفض لنفسي وأصرعه برفضي، لقد تغيرت، من زاوية أخرى، لقد كذبت عليه، وقلت له إنني فقدت عذريتي في سن الثامنة عشرة، كنت متأكدة أنَّ كذبة كهذه ستجعله يهرب ولن يعود، وبالفعل ذهبت أنا ولم أعد، وهو لم يقم بأي شيء لاستعادتي، كنت متأكدة أنَّه لن يجرؤ رغم سنة من كلام

الحب المعسول، سنة من الأمنيات في أن نكون مع بعـــض، ثم يكفي أن أجربه بكذبة من هذا القبيل حتى ينهار هذا القصـــر الوهمي كله ويتلاشى كما لو كان مصنوعًا من رمل، وتلاشى بالفعل وكلٌّ ذهب إلى طريقه، ومن يومها تغيرت، وقلت لماذا الحب؟ كان عليَّ أن أغطس في دراستي، هذا هو المهـــم، وأن أعيش علاقات مؤقتة، مع رجال مؤقتين، ومع الوقت ذهبـــت عذريتي بالفعل، و لم أشعر بأي أسف أنّني تركتها تذهب مـــع شخص لا أعرف عنه الكثير، رجل كنت أستلطف حضـــوره مرات في نادٍ رياضي كنت أمارس فيه الرياضـــة مـــرة كـــل أسبوع، وجمعتنا اللحظة وفعلنا ذلك في حمام المركز الرياضي، وأحسسنا كلانا بالمساواة والسعادة، وشعرت بالراحة، وهـــو كذلك شعر بنفس ما شعرت، لا لسبب إلاّ لأنّ الرجل يمارس الحب بكل عنفوان وحبور عندما لا يكون عليه ضغط شديد من المؤسسة، ثم لا شيء، صارت الحياة تبدو لي جميلة، ووقت العمل أعمل بجد ونشاط ووقت الراحة أستمتع فيه دون تقييد نفسي بتلك الضغوط التي كنت تحت تأثيرها من قبل، لـــيس الأمر سهلاً على كل حال، ولا أنصح أي امـــرأة أن تفعـــل مثلي، لماذا؟ لأنّي مقتنعة أن ذلك مرتبط بالتجربة الشخصـــية، لكل منا تجربته التي عبرها يتحقّق ويتشكّل ويكون في الحيـــاة كما هو وليس كما يريد منه الآخرون أن يكون..

والآن قد تسأل لماذا أكتب لك كل هذا؟ وما دخله بك؟

أنت شخص لذيذ ثقافيًا، الحديث معك جد ممتع لعقلي، أشعر بقرابة فكرية نحوك، ولهذا سأكون صريحة معك، وفضلت أن يكون ردي مكتوبًا؛ لأنِّي أشعر بمتعة في الكتابة، ولكن هذا لا يمنع أن نلتقي ونتحدث ثانية وجهًا لوجه.

ردي هو كالتالي إنَّني سعيدة بأن عرضت عليَّ أن أكون صديقتك، لكني لا أستطيع ذلك، فبالرغم من عدم ثقتي في تلك الكلمة السحرية التي نسميها الحب إلاَّ أنِّي ضعيفة نحوها كثيرًا ولا أريد خيانتها أبدًا. إن ما اقترحه عليك هو كالتالي. إن قلبي ليس لك، ولا أظنه سيكون لك لأنَّه مرتبط برجل آخر. في هذه اللحظة لا يستطيع أن يكون معي أو لي ولهذا أقترح عليك جسدي. إن أعجبك الاقتراح فسأكون سعيدة بتقاسم متعة الجسد معك. هذا فقط لا غير دون أن تطلب مني أكثر من ذلك لأنَّه عين المستحيل. وكرجل أنا متأكدة أنك ستقبل.

ليلاً في بن عكنون

* * *

الصمت بيت يمكن أن يختفي فيه الإنسان مـــع نفســه طويلاً، غير أنّي أدركت أنّي لن أختفي عن نفسي حتى لـــو اختفيت عن الجميع، لقد تكلمت طويلاً في داخلـــي بعـــد قراءتي للرسالة، بقدر ما تخليت فجأة عن أية رغبة في محادثـــة الآخرين، اختفيت لمدة أسبوع، ذهبت إلى تيزي وزو، حيث لا أتكلم حرفًا واحدًا من لغتهم هنالك، أخذت غرفة بفندق صغير يقع في أطراف المدينة التي لم تعجبني بالمناسبة، رغم أنها مدينة حيّوية، تعج بالحركة والناس، فيها العديد من الحانات والمقاهي المختلطة، أو التي تسمح بحضور صديق مع صديقة، وحتى ممارسة بعض الحب السطحي، من فوق ولـــيس مـــن تحت، بدت لي شاحبة وكئيبة، مهملة وغـــير مهـــتم بهـــا، وسكانها مضجرون للغاية، أو غير مبالين بالقادمين من بعيـــد إليها، وربما للأمر علاقة بحالتي النفسية التي أســـقطتها علـــى المدينة بأكملها، حالتي التي تدهورت، وأنا أحلـــل وأنـــاقش مدلول كلماتها، لقد شعرت نحوها بالكثير من الحقد، الـــذي كاد يتحول لشيء بشع، كأنّي نبـــذتها في داخلـــي، وأردت التخلص منها بسرعة، ونسيان كل ما تمنيته منها، فلقد كانت رسالتها مقززة، يا للشـــيطانة، مـــاذا أرادت أن تقـــول لي: كرجل ستقبل، هل تظن أنّه ينقصني العلاقات الحميمة مـــع النساء، حتى تفكر إنّني سأفرح بعلاقة جســـدية فقـــط، يـــا

للسوء، يا للشر العبثي، يا للظلم، لقد كرهتها فجـــأة، وفي نفس الوقت اشتعلت حرقة لكي أقبلها، أو أحتضنها، كنت بالفعل أرغب فيها جسديًّا وأريدها أن تعشقني مـــع ذلـــك عاطفيًّا، حتى لو لمست من حديثها الأول معي أنَّها متعلقـــة بشخص آخر، لم تقل اسمه لي، ولكن عرفته، من غيره، هـــو الذي يثير النساء دائمًا، ويقعن في عشقه كالفراشات عنـــدما يحمن بالضوء حتى يغمى عليهن، اللعنة عليك يـــا صـــادق سعيد! دائمًا تتدخل في الأشياء التي تخصني، كأنِّي مجبر علـــى أن أكون ظلك التابع بالفعل، ألاَ يحق لي الاستقلال عنك؟ ألا يحق لي أن أجد امرأة لا تحبك؟ هل اكتشفت فجأة أنِّي أكره صديقي الصادق؟ لا؛ بالتأكيد! كنت مرات أشعر بـــالغيرة منه، وأرغب أن أخرج من ظله، أو هذا الذي أعتقد نفســـي مسجونًا فيه، ومسحوقًا بداخله، ثم اقول في نفسي: ليس هو من سجنني بل أنا من سجنت نفسي؟ أنا من أشعر بهذه الغيرة التي تحولت مع الوقت إلى عقدة، ولهذا السبب قررت تـــرك الوظيفة بجامعة الجزائر نحو جامعة بعيدة في ولاية المدية.

لم أرد على رسالة سميرة قطاش حينها، لقد فررت بجلدي وغيرت مكان العمل والحياة، ســـافرت فتـــرة الصـــيف إلى مدريد، ثم عرجت على باريس، مارسيليا، ثم ذهبت لليونان، أبحرت كعوليس في مغامرة بلا معنى ولا جدوى، فقط كـــي

تحس نفسك قادرًا على الهرب في تلك اللحظة التي تكـــون روحك غارقة، أو هي قاب قوسين من الغرق.

***

لقد بدا واضحًا أنَّ صادق سعيد لم يعد راغبًا لحظتـــها بالبقاء في الحانة، فسألته: ما الذي أزعجك؟

فنظر ناحية المسئول الأمني الذي كان يشرب في صمت، في زاويته شبه المعتمة، ثم قال لي:

- «نعم علينا أن نغير المكان، كيف نجلس في مكـــان يجمعنا بهذا النوع من البشر».

قلت:

- «ألهذه الدرجة لا تحبه...؟!».
- المسألة ليس لها علاقة بالحب أو الكراهية، شخصـــيًّا لم يفعل لي شيئًا سيئًا حتى أكرهه وأحقد عليه، فقط إنَّ هذا الشخص كان يستطيع في فترة قريبة بكلمة منه أن يدخل من يشاء السجن، أن يفبرك أي قضية، أن يضغط على رجل شريف بأن يستسلم... هؤلاء الناس لا أتحمل روائحهم الكريهة.

ثم قمنا منصرفين، طلبت منـــه أن نعـــود لبيتـــه بحـــي سانتوجان، وأنَّني أريد مشاهدة سارة، ولا أدري لماذا عندما

نطقت باسم زوجته حتى ارتسمت على وجهه علامة حـزن غامضة...! رد بصوت منخفض:

- «هي مسافرة وليست بالبيت...».

عرفت في طريق العودة أنَّهما على وشك الطلاق.

استغربت ورددت كلمات من قبيل «غـير معقـول!»، و«غير ممكن!»، «أنت وسارة؟! هذا مستحيل!»، لكنَّه لم يرد عليَّ، اكتفى بنقل الخبر المؤلم دون أن يضيف كلمة واحدة...

وعندما دخلنا بيته المطل على البحر، فتح النافذة علـى مصراعيها ثم توجه ناحية المطبخ، أحضر زجاجة ويسـكي، وكاسين فارغين... وقال سنشرب في نخب نسـاء الحـب المستحيلات... ضحكت للعبارة الأخيرة...

ولأنَّه ذكي بما فيه الكفاية، فلم يعودني على غير ذلـك سألني بغتة:

- «هل تذكر سميرة قطاش... صار لي فترة طويلـة لم أسمع عن أخبارها؟».

تساءلت في داخلي هل يعرف القصة ويريد اسـتدراجي للحديث، أم حدس بما يدور في قرارة نفسـي ويريـدني أن أتحدث، تلعثمت في الرد، نظرت جهة البحر، شعرت ببعض السكينة، دون أن يمنع عني ذلك الاضطراب والتوتر، ثم قلت:

«كرهت من ربها».

رد مستغربًا:

- «ماذا تقول؟».
- اللعينة أظنها امرأة مجنونة.
- لماذا تقول عنها ذلك؟ ماذا حدث بينكما؟
- لم يحدث شيء... لا شيء... مجرد نزوة عابرة...

كنت أعرف أنه لا يحبذ النظر إلى النساء على أنهن مجرد «نزوة عابرة» حتى لو كان هو في شبابه بارعًا في العيش داخل النزوات العابرة والعلاقات العابرة... ولم يكن يهمه الأثر السيئ الذي يتركه بعد كل انفصال عنهن... كان يعتقد أنَّ الحب الجوهري سيكون لواحدة فقط لا شريك لها وعندما يجيء ستكون الأخيرة...

- إنَّها امرأة رائعة وتستحق أن تحب.
- نعم رائعة لدرجة أنَّها ترفض الحب... تريد فقط...
- ماذا تقول؟ لم تحدثني عن هذه القصة من قبل... كيف أخفيت عني طوال هذا الوقت مثل هذا الحب.
- لا أريد تسميته بالحب؛ لأنَّها لم تحبني؛ لأنَّها أحبت شخصًا آخر... وكل ما منحتني إياه هو الجسد وكم كان رائعًا جسدها... إنَّها أنثى غواية كاملة الصفات، ولكن بلا حب كأنَّها كانت في كل مرة أجتمع بها تطعنني في الظهر...

قال متنهدًا:

- «نحن الرجال سيئون. عندما تعطينا المـرأة الحـب نطالبها بالجسد، وعندما تعطينا الجسـد نطالبـها بالحب!

- لا يهم، هذا ما حدث، الأمر مؤسف للغاية، أشـعر أنَّ كل ما حققته معها هو أنني مع الوقت احتقرت نفسي أكثر، لقد أصبحت متأكدًا أنَّها لم تقبـل أن تفعل ذلك معي إلاَّ لتهينني، ولتشعرني بهذا الاحتقار للذات... لتقول لي في النهاية: «انظر كم أنت مجرد حيوان جنسي وتقبل الجسد بلا قلب».

- هذا مؤسف حقًّا... لم أتصور شيئًا كهذا يحـدث بينكما...

- أنا أيضًا لم أتصور ذلك؛ لأنِّي في البدايـة رفضـت، وقررت تركها، وبدلت حتى مكان العمل والحيـاة حتى يتسنى لي نسيانها جذريًّا، لكن بعد سنة، التقيت بها مرة في شارع عميروش، حيث كنـت أتسـكع وحيدًا وبشعور محبط، ولا أخفيك مجـرد رؤيتـها أيقظت فيَّ مشاعر السـعادة، لم نتحـدث طـويلاً حينذاك، كانت على موعد طبـي، تركت لي رقـم هاتفها وأخبرتني أنَّها تنتظر مكالمة مـني في الليـل،

فهاتفتها، وتحدثنا حتى الصباح، أرأيت كيف تستطيع المرأة أن تلعب بعقل رجل، تحدثنا حتى الصباح وبعدها بيومين، التقينا وذهبنا إلى بيت خالتها زهور التي تقيم فيه وحدها بشارع ديدوش مراد، ومارست معها الحب لأول مرة... كانت رائعة، حتى أنني وددت لو تقبل مني أن أتزوجها في تلك اللحظة ونسافر معًا إلى بيتي في المدية، لكن لم أجرؤ... لقد بقي شرطها هو هو لم يتغير، الجسد لا الحب... ثم صرنا نفعل ذلك مرة كل شهر أو شهرين بحسب ظروف كل واحد منا، ثم بالنسبة لي لم يعد هذا الأمر محببًا، ففاتحتها في موضوع الزواج، كررت عليها حتى جملتي السحرية «أنت امرأة أحلامي الحقيقية»، وهذه المرة غضبت مني بالفعل، وطلبت مني ألا أكرر ذلك على مسمعها من جديد، ثم طلبت شيئًا آخر أسوأ: «يجب أن أضع حدًا لهذه العلاقة».

كدت أصفعها على خدها، ولكنّي لم أفعل، وخرجت من بيت خالتها مسحوقًا ومنهارًا، ومصابًا بألم في القلب لا يداويه إلا الموت.

تقيأت ما في جوفي دفعة واحدة، بينما بقي صادق يتأملني بهدوء، وهو يحاول أن يستوعب حكايتي تلك، لا

أدري ماذا دار في خلده ساعتها، هو الذي كان يعيش أيضًا فراق امرأة أحبها من كل قلبه وترك من أجلها نساءً كثيرات... راح يشرب الويسكي بهدوء، ثم قام وخرج من الغرفة ناحية السطح المطل على فسحة البحر... شاهدته من النافذة يتعمق في زرقة البحر الجليلة، ويغرق في ذكرياته هو أيضًا بينما قمت أنا من مقعدي وتوجهت ناحية الباب، ثم خرجت كاللص دون أن أنبس بكلمة.

***

لا أنا استطعت أن أكون صريحًا معه، ولا هو كان صريحًا معي، كلانا أخفى على الآخر شيئًا من الحقيقة، ربما لكيلا نؤذي بعضنا البعض، أو ربما لأنَّنا نشعر أنَّنا مذنبان في حق بعضنا البعض، ربما لتجنب المواجهة، تجنب أن نصل إلى نقطة اللاَّ عودة، نخسر بعضنا كأصدقاء، لقد لحقت الهزيمة بنا إلى العمق، هو فقد سارة، وأن فقدت سميرة.

بقي له شيء واحد سيتمسك به حتى آخر نضاله، أما أنا فلم يعد بحوزتي شيء أقاوم من أجله...

عندما غادرته أخذت سيارة أجرة وذهبت إلى فندق صغير بالقرب من البريد المركزي، هنالك فعلت الحب لأول مرة مع سميرة، وشعرت نحوها بالحب القويّ، مع أنِّي كنت

أتصور أنَّ ممارسة الحب كفعل جنسي سيطفئ من نار تعلقي بها، ظننت هذا كالأبله، و لم أتصور أنَّ الجسد سيزيد من إشعال ناره بقلبي... سيزيد من تورطي بها، ومن صدها لي.

أخذت الغرفة ذاتها ووقفت بالقرب من النافذة التي تطل على حديقة خميستي، كانت السماء غائمة وتمطر، كان الجو باردًا، كان المساء يعلن عن نهايته، كنت أحسني أنتهي معه، طلبتها في الهاتف عدة مرات دون جدوى، كنت أريد سماع صوتها فقط، جاء صوتها أخيرًا وبدل أن يمسح عن قلبي الحزن قالت بصرامة وقحة: «أرجوك... عش حياتك، واتركني»، ثم أغلقت في وجهي هاتفها... أحسست بإحباط شديد، بقيت أرقب نهاية المساء، وغروب الشمس، بقيت أنتظر نهايتي.

القاتل

لم أعد أعرف جيدًا هويتي، حتى لو لم يغب هاجس القتل عن بالي، ولكن لأول مرة أريد أن أقتل لأساعد إنسانًا للتخلص من ألآمه، هذا شيء جديد، وغير طبيعي بالنسبة لي، وحتى لو كنت مدركًا أنّها لن تقبل أن أقتل أولئك الرجال الذين سببوا لها تعاسة لا تنتهي، مشاعر مفرطة في الحزن والسوداوية واليأس، وأوصلوها إلى أن تفكر في الموت، نعم في وضع حد لحياتها، وأنّني لو كنت شخصًا عاديًّا مثل باقي البشر، لعملت على أن أشملها بالحب وأرعاها بالحنان وأعيد لها الثقة في الرجال من خلال ما أمنحه لها من كلام صادق، وعاطفة قوية، وتعامل إنساني رفيع يعيد لها ثقتها في الحياة مرة أخرى، لكنّي لست هذا النوع، وفاتني الوقت على أن أكون يومًا بهذا الشكل، حتى لو أردت ذلك، ورغبت فيه، وفكرت للحظة في إمكانية حدوث تحول داخلي، ما دمت شعرت نحوها بذلك الشعور العاطفي الخاطف، ومارست معها الحب

بذلك الشكل الشاعري المدهش، لكن بسرعة سحبت الفكرة من ذهني إلى الوراء، وسحقتها كما يسحق شاب مراهق نملة، فقط لأنَّها صغيرة وتافهة وأخطأت في مرورها أمام قدميـــه، فلا يحس بأنينها حينما يدهسها، ولا بصرختها المدوية حينما تتمزق كل أحشاءها، فهؤلاء الضعفاء مصيرهم الانســـحاق والموت، هكذا يفكر الشاب المراهق في ســـحق الحشـــرات الصغيرة، وهكذا أفكر بدوري في الذين أقتلهم، فهم أصـــغر من أن أنتبه لهم، وأضعف من أن يحسسني بالـــذنب عنـــدما أفتك بهم، هم حشرات مجهرية لا ينتبه أي أحد للطريقة التي يموتون بها، وذهابهم لا يغير شيئًا في المعادلة الكونيـــة، ومـــع ذلك كنت أعرف أنَّ بني البشر يتـــألمون عنـــدما يفقـــدون شخصًا قريبًا عاشوا معه فترة طويلة من أعمارهم، وشـــكَّلوا معه وحدة شعورية ورابطة روحية تجمعهم قد تكون عائلة أو صداقة أو حب، ومرات أخوة إنسانية خارج القرابة والعائلة، وهذه صفة بعض الفلاسفة والفنانين والكُتَّـــاب وأصـــحاب القلوب الرقيقة، والتي تتأثر لمصاب البشر أينما كانوا وحيثما تواجدوا، لكنِّي لم أكن معنيًّا بكل ذلك التوحد والتشـــارك الإنساني، وهو شعور نبيل بالتأكيد، لكن بالنسبة لي كـــان يخالف طبيعتي الداخلية، التي تفتقد لمشاعر التضامن والأخوة والقرابة والصداقة والمحبة وغير ذلك، ولقد كان هذا العـــالم

الخالي من ذلك الوهم أو الشعور يسعدني بشكل غريب، وهو مصدر لذتي النفسية والجسدية في حالتــها القصــوى، ولم أتضايق يومًا من هذا، وانتظمت حياتي على هــذا الشــكل وسارت بهذا الإيقاع، ولم أكن أرغب في تغييرها حتى ظهرت هذه المرأة الشابة في حياتي... هذه المرأة التي زجت بــي في مغامرة من نوع خاص، وكي أتمسك بها، ولا أفقد في نفس الوقت نزعتي الطبيعية في القتل، كان عليَّ أن أجد الطريقــة التي تجمع متناقضين بعضهما لبعض، وما كان منِّــي إلاَّ أن فكرت في قتل الذين أحبتهم أو اقتربت منهم، وهكذا يتسنَّى لي كما يقال ضرب عصفورين بحجر واحد.

بدأت أفكر في الشخص الأول الذي سأبدأ به، ولأنِّــي أملك ذاكرة قوية، لم أنسَ كل ما حكته لي، مــن تجــارب وقصص وخيبات وأحلام موءودة، وخاصة أسماء الأشخاص، وبما أنَّ جذر المأساة الأول كان ذلك الأستاذ الذي يــدرس الفلسفة والذي اسمه رشيد، ثم الأستاذ الذي أحبته في الجامعة بعده ولم يبادلها الحب لكن ذلك لم يمنعه من أن يمارس معها الجنس دون حياء وهو في علاقة حب مع امرأة أخرى اسمها سارة حمادي، فذلك الشخص سأتركه للأخير...

سأبدأ من الذين يعيشون في مدينة تيزي بما أنِّــي أقــيم فيها، وشعرت بالإثارة لمجرد أني فكرت في قتل الوغد الأول

والذي اسمه علي بركان، وهو يشتغل في الــدرك، نعــم في الدرك حسب ما أخبرتني هي، ووجدت صعوبة في العثــور عليه، ثم تبين لي أنه لم يكن دركيًّا؛ بل مجرد عامل حراسة في مصنع صغير للعصير، وهذا ما زاد من رغبتي في قتله، ما دام خدعها حتى في مهنته، حتى تظنه شخصًا ذا قيمة، وصــحيح أن سميرة قطاش قالت:

«لم أشعر بالحقد عليه لسبب بسيط أنني كنت مندفعــة نحو هلاك نفسي كما لو أني أدفعها إلى أن تنتحر بأشــكال مختلفة، وبالتالي دفعته بعد مراودات عديدة من طرفه، كنــت أترك له فيها بريق أمل أنّه سينالني يومًا، وعندما شعر أنّــني فقط أماطل ولن ينال شيئًا قرر الانتقام مني فاغتصبني بشناعة في إحدى الأماسي الباردة بالقرب من غابة صغيرة، تــركني أنزف دمًا وشبه عارية، لقد كان ذلك الاغتصاب هو الجزاء الذي استحقه نفسيًّا كعقوبة لي على أنّي فقدت ثقتي بالحياة، ثقتي بنفسي، ثقتي بالله والسعادة والحب...».

مهما كان تحليلها التبريري للموقف؛ فهذا الوغد يحتاج أن يقتل بيدي وبطريقة تليق به، وهذا ما فعلته بالفعل بعــد يومين من المراقبة الدقيقة، عرفت كل خطواته وحركاته وأين يأكل، وأين يشرب قهوته، وكان عمله يبدأ على الثامنة ليلاً، وهذا ما سهل عليّ العملية، فنفذتها بلذة كبرى أشعرتني من

جديد بسعادتي العميقة التي لا توصف، كنت أرغب بعدما نفذت القتل أن أتصل بسميرة وأخبرها بما حدث للوغد الذي أهانها واغتصبها دون أن يرف له جفن رحمة، وأمارس معها بعد ذلك الحب الجميل كما في أول مرة حدث بيننا ذلك، وتكون ليلة خاصة جدًّا، لكن تراجعت بسرعة عن الفكرة، ومحوتها من دماغي على الفور، فلقد كنت مدركًا أنّي لو أخبرتها بما أنجزت سترتعب، وتفر مني إلى الأبد.

***

تركت ما يقرب الشهر على تلك العملية، وعدت أبحث عن الوغد الثاني الذي قررت تصفيته من الوجود، بحثت عنه في الفيس بوك، حيث أخبرتني أنّه يقيم فيه تقريبًا، ولا يغادره إلا للقيام بأمور بسيطة.

اسمه كريم دالي، في التاسعة والعشرين من عمره، اكتشفت أنه صاحب سوابق عدلية في الاحتيال على النساء، قضى سنتين في سجن الحراش؛ لأنّه احتال على عجوز مسنة وسرق منها مبلغًا ماليًا كبيرًا بعد أن أوهمها أنه سيشتري لها شقة فاخرة في الجزائر العاصمة، لم يكن يظهر على وجهه سمة الشخص المخادع؛ بل هو إلى الطفل البريء أميل في الملامح، حتى إنّ أي شخص لو تكلم معه لعطف إليه ووثق به.

أخبرتني سميرة أنّها في مراحل السقوط التي كانت تعيشها نفسيًا التقت به في العالم الافتراضي، وتحدثت معه مطولاً، واستطاع استدراجها لتحكي له حكاياها كلها، فعرضت عليه كل ماضيها المتلون من أمل ومثابرة وحب للنجاح والتفوق إلى هزيمة واندحار وعنف، وخيوط حياها المبعثرة، وقصة حبها المجهضة وغير ذلك، استطاع أن يقنعها بنفسه لكي تلتقي به، وتدخل معه في علاقة جسدية، قبلت هي بعد مرور سنة على الاغتصاب المؤلم الذي عاشته، قالت لي: كنت بحاجة أن يتعافى جسدي من جديد، وربما مع تعافي الجسد تلتئم جروح روحي... هذا ما أوهمت نفسي به... أو ظننته الطريق الصحيح... لكن كنت متأكدة أني أعيش حالة انحدار... منذ لحظة الاغتصاب المشينة انكسرت في داخلي كل قوايّ للمقاومة... استطاع أن يقنعني بأنه طوق النجاة، وحتى لو لم أصدقه تمامًا كنت بحاجة إلى كذبه... كنت أريده سفينة عبور إلى ضفة آمنة... أنتقل عبره إلى حياة أستعيدها من جديد... فإذا به يغدر بي، ويأخذ لي صورًا حميمة في أول لقاء جمعنا ببيته ليمارس عليّ بعدها الابتزاز... تدفعين أو كل زملائك في الجامعة سيرون صورك... دفعت له ما كنت أستطيع دفعه، صرت أتقاسم معه حتى أجرتي الشهرية، ثم لم أستطع أن أتحمل كل ذلك الضغط فقررت

تبليغ الشرطة... التي أمسكت به من جديد ووضعته في السجن... طوال الشهور التي مرت بين البلاغ عليه والتحقيق معي ومعه وعرض الصور أمامي كنت منهارة، في حالة ذعر وتعب وهزيمة، لكن قررت أن أقاوم كل ذلك... قلت لن أفقد هذه المرة إيماني أني أستطيع الانتقام من شخص قذر يريد تلويث سمعتي ونجحت في الزج به في السجن... لقد حكم عليه بعشر سنوات... لا أدري إن خرج الآن أم ما يزال خلف القضبان...».

قمت بتحرياتي الخاصة وعرفت أنه لم يمكث في السجن إلا سنة واحدة فقط، ثم جاء العفو السنوي فتركوه يخرج لكنه انتقل للعيش في مدينة البليدة، حيث يعمل نادلاً في قاعة شاي، وقمت بدوري على أكمل وجه، اضطررت للسفر ثلاث أيام إلى مدينة البليدة وراقبته بدقة كبيرة حتى عرفت كل شيء عنه، لحسن حظي كان يحب السهر في الملاهي الليلة، وكان هذا يعني أني أستطيع خطفه ليلاً وهو في حالة سكر، وقمت بذلك، وأنهيت حياته بضربة واحدة من خنجري وتركته يغرق في بركة دمه...

وبعد ذلك رحت أفكر في قتل الذين كانوا سببًا في طريق الهاوية الذي قطعته سميرة قطاش وحدها منهارة ومهزومة ويائسة...

ظهر اسم أستاذ الفلسفة رشيد
ثم أستاذ الأدب صادق سعيد
وصديقه الفكري أو الروحي فاروق طيبـــي...
ثلاثة أسماء يجب أن تدفع بدورها الثمن.

سميرة قطاش

لم أستطع النوم البارحة، بقيت أتقلب في الفراش وأحس بالتعب، رأسي يغلي ويفكر، عملية التفكير مؤلمة وليست بالأمر السهل، كل من يفكر يتعذب، كل من يستعمل عقله يصاب بألم شرس، الحياة العقلية ليست للجميع، هي ملك لأفراد قلائل، بقية البشر يحبون العيش في المناطق الآمنة، ولا يزعجهم أن تقول لهم تشبهون قطعان الغنم، فهم بالفعل يفضلون العيش كالقطعان على قلق الشاة التي تتمرد ويكون مصيرها جوف الذئب... حسنًا، لم أكن شاة متمردة، كنت بعض الشيء ذكية، وحالمة، وتجربتي في الحياة كانت قاسية، وعشت طفولتي ومراهقتي ككل البنات في داخل البيت أكثر من الخارج، كانت الحياة مرسومة بعناية محددة، الدراسة فقط مكنتني من أن أجد في كل هذا السجن طريقًا ثالثًا، ولقد أحببتها لهذا السبب كما نجحت فيها لذات السبب، كوني فهمت أنّها ستخرجني من وضعي النسائي المنسوج لي بحكمة

يعلمها الذكور ولا يفقه حكمتها النساء.

كنت أريد تحقيق أشياء كثيرة في حياتي، ولكن يبدو الآن كل هذا مجرد حلم بعيد، هجرني وهجرته، تركني لكوابيسي وروحي المنهوبة، أما جسدي فبالكاد أحس به، إنه موجود لكنه ضائع مني، الجسد هذه المشنقة التي تشق من خلالها النساء، ويشنقن بها هن أيضًا الرجال، الحياة مليئة بالظلام، الحب نقطة ضوء واحدة سرعان ما يتحول بدوره إلى ألم لا نهائي، جرح غائر في الصدر، تدفق مستمر للحزن، كآبة شتوية لا تسمح للشمس بالتسلل إليها، وما يظل ماكثًا هو الرغبة في طي الصفحات بسرعة، الوصول إلى نقطة الختام بأمان، الموت، الشيء المريح في الحياة هو أننا عندما نتعذب كثيرًا نفكر في الموت، ونقول إنَّه الخلاص، خلاصنا الأخير، وبعده لا شيء، صمت طويل ونسيان كبير، لكن الجراح تخمد، الروح تتلاشى، والجسد يندثر بدوره ولا يبقى إلا هيكل عظمي يشبه كل الهياكل العظمية المهملة تحت التراب والتي لا تعود تعني للبشر الشيء الكثير.

كنت دائمًا متأثرة بما يحدث من حولي، حساسة للغاية من مصائب من هم أقرباء لي، أمي عندما طلقها والدي كاد ذلك يهدمني من الداخل، ويقودني إلى حالة من النكوص النفسي، خاصة أنَّ والدي قرر هجرنا جميعًا والسفر إلى

فرنسا. «طلق وهرب» كما تقول لي: «عشرة الحياة نسيها في لحظة»، كنت أحاول التخفيف عنها وتذكيرها أنّه كان يضربها ويهينها وأنّها من ذلك اليوم لن تكون مضطرة لتحمل أشياء سيئة من هذا القبيل، ترد وهي تبكي: «لم يترك لي شيئًا أسند عليه ظهري، حتى السيارة باعها الوغد»، ثم بعدها بشهرين فقط جاءني خبر طلاق أختي من رجل كانت تحسبه أنبل الرجال، فإذا بها تكتشف أنّه مريض نفسيًا، ولكن طلاقها حدث بعد عشرة طويلة وعدد لا بأس به من البنين والبنات، أحضرتهم معها إلى البيت بعد قرارها بعدم العودة إلى ذلك «الوحش» كما سمته، وجاء طلاقها مرعبًا لي، شعرت باليأس حينها من الحياة، وبخوف من الرجال، كرهت الرجال بشكل عام، وكنت أفكر في ترك الدراسة مع أنني كنت في السنة الأخيرة ثانوي، وقررت البحث عن عمل لإعالة عائلة منكوبة، أمي رفضت ذلك بخشونة، بل كادت أن تلطمني على خدي وأنا أصر على قراري، وهي تصر على أنها هي التي ستعمل، وتعيلنا كما لو كانت رجل البيت... كانت أمي تجيد الخياطة ولها ماكينة صغيرة أخرجتها من صندوق قديم كان مخبئًا تحت سرير خشبي... وبدأت تعمل في البيت، وتتدبر حالها، ثم تدخل خالي تاجر اللحوم حيث ساعدها بعض الشيء في توفير دكان صغير لتعمل فيه

على راحتها، تصورت أنه فعل ذلك طيبة منه، لكن عرفت لاحقًا أنّه طلب من أمي أن يتقاسما الأرباح، و لم تغضب أمي من تصرفه، كانت تعرف شرهه للمال، وتدرك أن قلبه مغلق على الحب وليس فيه قطرة حنان...

استطاعت أمي بعملها البسيط أن تقهر الظروف الصعبة التي واجهتها وكانت شجاعة، واعتبرت أن بطولتها كانت خارقة، فهي لم ترغب في الاستسلام ولا الركون إلى حالة الضعف المناسبة لها، بل قررت التحدي وتحقيق النجاح، أما أختي التي ظلت منكسرة فترة طويلة بعد طلاقها صارت تساعدها في العمل، وخرجت بعض الشيء من كابوس الخوف الذي كاد يشلني حينما باغتتنا كل تلك المشاكل، وواجهتنا فجأة كل تلك الصعاب...

نجحت في الباكالوريا، وعلى عكس المتوقع، قلت لأمي أريد أن أسافر وأدرس بالجزائر العاصمة، نظرت إليّ مستغربة وسألتني عن السبب فقلت: أريد أن أجرب الاعتماد على نفسي أكثر، كما أرى الحياة صعبة والمرأة التي لا تعتمد على نفسها لن تنجح أبدًا في حياتها... ضمتني إلى صدرها الحنون وبكت، لم تقل شيئًا، شعرت فقط أنّها كانت راضية على قراري، وهكذا خرجت من منطقة الشرق التي لم أكن أعرفها جيدًا إلى مدينة كبيرة كالجزائر العاصمة...

أذكر أنّي وصلت في المساء، نزلت من سيارة الأجرة في شارع زيغوت يوسف، بدت لي المدينة فضاءً كبيرًا ومخيفًــا، وفي نفس الوقت واعدًا ومفتوحًا على أشياء جميلة تنتظرني في المستقبل القريب...

كانت رغبتي أن سجل في معهد الفلسفة، الحــق أنّــني كنت مغرمة بقراءة الكتب الفلسفية، وخاصة كتب معلمــتي الأولى سيمون دي بوفوار، اللعنة عليها، كثير من القــرارات التي اتخذها في حياتي كانت مرتبطة بهــذه الفيلســوفة الــتي أحببت كتابها «الجنس الثاني» عندما قرأته حبًّا كاملاً «نحن لا نولد نساء، المجتمع هو الذي يجعلنا كذلك»، تلــك الفكــرة بقيت راسخة في ذاكرتي، لكن لسوء حظــي لم يقبلــوني في معهد الفلسفة فاخترت معهد الأدب، كان هــو الأقــرب لطموحاتي أيضًا، كنت أريد أن أكون باحثة جامعية، لم تكن همني الشهادة بقدر ما كان يثيرني أن أبحــث وأستكشــف وأعرف العالم من خلال النصوص والخطابات، ففيهما يظهر المسكوت عنه والمنطوق به، النصوص حافلة بما يجذب، وبمــا يثير، وبما يغري، وبما يجرح، وبما يهدي، وبما يضــل، فهــي العالم بتعدديته واختلافه وهي متعة السؤال وفن المعرفة.

اقتحمت عالم الدراسة بشغف حتى لو كــان مســتوى التدريس ضعيفًا و لم يكن يقوم على تقديم الجديد، خيبــت

الجامعة بسرعة أفق انتظاري؛ إذ كنت أعتقد أنَّني سألتقي بعباقرة يدرسون لنا بحب ومتعة ومعرفة واقتدار، لكن اكتشفت أن ذلك مجرد حلم مراهقة سرعان ما تبخر عندما وطأت قدماي عتبة الجامعة، عالم الدراسة روتيني للغاية، محاضرات تدوم لساعات طوال يتحدث فيها الدكتور أو يقرأ من أوراق كتبها منذ زمن وتقادمت مع الوقت وهو لا يشعر بأهمية أن يحينها من جديد، أمَّا الدراسة التطبيقية؛ فتتم في أقسام صغيرة، وغالبًا يختار لها طلبة الماجستير الذين تكتشف بسرعة عدم إيمانهم بما يقومون به، خاصة وأن أغلبهم لا يتقاضى أجرًا على ذلك؛ ولهذا كان عليَّ الاعتماد على نفسي والتسجيل في المكتبات الجامعية وغير الجامعية، صرت دودة كتب، أستعير العناوين الكثيرة وأعود بها لغرفتي الجامعية، التي كانت تقاسمني فيها طالبتان: واحدة من مدينة تيارت اسمها ليندة، والأخرى من مدينة البليدة تدعى شريفة... كانتا مختلفتين عني وعن بعضهما البعض، ليندة غير مهتمة بالتعليم، ومن البداية أخبرتنا أنَّ الجامعة فرصة للتصعلك والعيش بحرية والعثور على زوج مناسب بعد التخرج، أمَّا شريفة فكانت متحجبة، ومتدينة شيئًا ما، ثم بعد معاشرة طويلة وأحاديث كثيرة معها شعرت أن كل هذه الصورة الخارجية كانت مفروضة عليها، لقد كانت مخطوبة لابن عمها البقال والذي

فرض عليها الحجاب حتى تستطيع تكملة تعليمها.

الحياة في النهاية تقوم على التسويات، والغريب أنّي كنت أرفض ذلك، أرفض أن يختار لي ما يجب فعله، أكره فكرة أن أعيش كما يريدون لي ذلك، هل كان تمردي صائبًا؟ أم كنت ما أزال في بداية الطريق و لم أضج بعد لأفهم أنّ الحيوات البشرية غير متشابهة؟ أن كل إنسان يكبر في ظروفه المختلفة، وهي التي ترسم له طريق الخضوع أو طريق التمرد...

وضعت مسافة بيني وبينهما، حتى أركز على اهتماماتي العلمية، كنت مصممة على التفوق والنجاح، وكان الطريق يبدو لي طويلاً ومتعبًا وفي نفس الوقت يحتاج إلى التضحية وبذل قصارى الجهد للتمكن والتحقق.

بعد ثلاث سنوات من حفاظي على هذا الإيقاع الجاد شعرت بالاختناق والتعب، كنت أزور عائلتي في قسنطينة في العطل فقط، والفترة الأطول هي في عطلة الصيف، كانت أمور البيت العائلي تتحسن، لكن لم يحدث ما يفاجئ، كل الأمور كانت تسير بروتينية الحياة العادية، أقضي فترة عطلتي في قراءة الكتب أكثر، وأحلم بالنجوم البعيدة، كنت فتاة رومانسية بعض الشيء، لكن حذرة من الرجال ومفاجآت الحياة غير السارة.

ظهر في حياتي رجل لم أتوقع أن أعشقه بتلك الطريقة الحالمة، في صغري أحببت من بعيد أستاذي الذي كان يشبه المغني الأسباني خوليو، لكنَّه كان حبًّا ساذجًا، ومن طرفي فقط و لم أبح به لأحد، أمَّا هذا الرجل الذي يُدَرِّس الفلسفة، ويملك ملامح الممثل مصطفى كاتب الذي عشقته في أول فيلم جزائري شاهدته في حياتي، حيث لعب دور الطبيب الثوري، نعم كانت له ملامحه ونظرته وعمقه، وكان أيضًا بسيطًا ومتواضعًا، عرفته لأنِّي كنت أصر على حضور الملتقيات الأدبية والفكرية ولاحظني مرة، وتقرب مني وتحدثنا في موضوع الملتقى الذي كان حول موضوع العقل والنقل في الفكر الإسلامي، وسألني عن سر اهتمامي بالموضوع فأخبرته أنَّه الفضول ومن جهته أخبرني أنَّه متخصص في هيجل، ولكنَّه شديد الولع بفيلسوف قرطبة ابن رشد، دار بيننا حديث فكري حول ماذا قدمت الحضارة الإسلامية من فلاسفة؟ وكيف هزم النقل العقل شر هزيمة، وأنَّنا نعيش منذ ذلك الزمن البعيد تخلفًا حضاريًا عميقًا لن نخرج منه إلاَّ بالقطيعة مع هذا الموروث والدخول في الحداثة...

كان لي إلمامي بالفكر العربي المعاصر، كنت مولعة بكل ما يكتبه المفكرون العرب وما طرحوه من قضايا وإشكاليات هي في صميم الأزمة الحضارية التي نعيشها في

العالم العربي وبعض الشيء في باقي العالم الإسلامي أعجبه اهتمامي هذا، وتحدثي بطلاقة عن مشاريعي المستقبلية في الفكر والأدب، كما أعجبني بدوره وهو يتحدث معي من دون تعالي الأستاذ عندما يتحدث مع طالبة تصغره في السن والمستوى...

بعد فراقنا عدت مسرورة للغرفة الجامعية ولأول مرة لم أغرق بين صفحات كتاب أدرس فيه، كما تعودت على ذلك طوال السنوات الثلاث التي قضيتها بالجامعة، بل طلبت من زميلتي ليندة أن تضع لنا شريطًا غنائيًا لفنان فرنسي كثيرًا ما كانت تستمع إليه «بيار باشلي»، ضحكت ليندة من طلبي وقامت بسرعة من فراشها وحققت لي ما طلبت وعيناها تتكلمان بلغة الحب والعسل. وتلمحان أنني واقعة في الحب وأنّها سعيدة من أجلي...

«الحب السعيد» هل هو موجود حقًّا؟ هل يمكن لرجل أن يخلق في امرأة سعادة حقيقية، احتفظت بشكوكي لنفسي، أوهمت ليندة أنّني أفكر في الحب كحالة تنسيني التعب، السهر الطويل في القراءة، روتين اليومي الممل، ردت عليّ من تحت لحاف الصوف التي كانت تغطي به رأسها «لا تكذبي عليَّ، أعرف من النظرة فقط إن كنت تعشقين أم لا...».

لم أكذب عليها، كنت أجبر نفسي على ألاَّ أدخل الحالة

إلاَّ بعد أن أختبرها جيدًا، دون أن أدرك أنَّ الحب مُـــداهم، ولا يعترف بالوقت والانتظار، هو يدخل مُتسللاً بلا طلـــب إذن من أحد، ويشغل حيِّزًا في مساحة من القلب والـــوعيّ وحتى الجسد.

تركت نفسي أنساق وراء رشيد، ولقلبـــــي الحـــق في الانغماس داخل التجربة، كنت سعيدة، وهذا كان كافيًا كي أنجرف مع نهره الجميل إلى حيث يريد. دائمًا في الحب تشعر أنَّك منقاد رغم أنفك، أو بلا إرادة منك نحـــو مـــا يريـــده المحبوب...

كنت أقضي لحظات سعيدة إلى جانبـــه، نـــدردش في الفكر، في أسئلة مجتمعنا، في وجودنا ومعناه، في الحياة الـــتي تفرض علينا شروطها وخياراتها وعجز الفرد على أن يتحرر من تلك السلطة، أحيانًا نرجع الخلل إلى غياب المال؛ فالحرية لا تتحقَّق للفرد إلاَّ إذا تمكَّن من الاستقلال ماديًّا، بينما رشيد يقول إنَّه يعرف نساء كثيرات حققن الاســـتقلال المـــادي، لكنَّهن لم يستطعن الفوز بتلك الحرية، ويسرد لي حكاياتهن:

- تصوري أعرف أستاذة طبيبة استأجرت بيتًا بشـــق الأنفس في عمارة بحي ديدوش مراد، الكـــثير مـــن العائلات لا تؤجر الشقق للنساء العازبات، ولكنَّهـــا عثرت على واحدة، لقد كانت فرحة ومبتهجة أخيرًا

بذلك الفضاء الحر، لم تتصور عدد المضايقات الـتي وقعت لها يوميًا، أمَّا دعوة زملاء لها للبيت؛ فلقـد حدث مرة وكادت تقوم القيامـة في العمـارة، تم التحريض عليها أنَّها فاسـقة، وحـتى الشـرطة -تصوري- استدعتها للتحقيق... كادت تُجن مـن تلك التصرفات، أخرجت كل غضـبها في مركـز الشرطة: هل تستهينون بـي... أنا طبيبة ودرست عشر سنوات وأعمل في مستشفى لمعـالجتكم مـن الأمراض الفتاكة، ثم تأتون وتحاسبوني على حريتي في أن أدعي أصدقاء للعشاء في البيت... طبعًا... بعـد شهور من تلك الحادثة... قررت الهجرة وأقسـمت ألا تعود إلى البلد...

سألته فجأة:

- قصة مفجعة، لقد تصورت أنَّ المدينة تختلـف عـن الريف.
- في الجزائر عقلية الريف هي المتمكنة والسائدة... لقد استبدلنا فقط تسمية القرية بالحي، يعني مثلما أبنـاء القرية يحرسون حركة النساء في قريتهم تجد أبنـاء الحي يفعلون نفس الشيء... تصبح امرأة الحي ملكية جماعية يحرسها الشباب والشيوخ وحتى الأطفال...

- وأنت كيف تنظر للمسألة؟
- شخصيًّا أفضل تجنب المشاكل... تجنب تعكير المزاج، وإذا أردت أن تسلم فما عليك إلاَّ أن تقبل بمنطقهم ولا تتدخل فيه لأنَّك إن عاكست التيار ستتعب كثيرًا وسيضايقونك من حيث تعلم أو لا تعلم.
- لكن لماذا تعلمنا وثقفنا أنفسنا .ألكي نستلم لعقلية التخلف والذكورة المريضة؟!
- نعم أفهمك سميرة ولكن الواقع هو الواقع، لست أنا ولا أنت من صنعناه على هذه الصورة وفي بلادنا الأقوى هو الذي يفرض منطقه وسلطته على الجميع.

كانت تظهر لي من خلال أحاديثنا اليومية بعض ملامح شخصيته المتناقضة، يمكنه عندما نتحدث في الأفكار والنظريات الحديثة أن يبحر إلى أبعد مدى، ولكن عندما نعود للمواضيع الملموسة، أي تلك التي نعيشها يوميًا بلحمنا ودمنا وعقولنا، أراه يتهرب، ومرات يشحذ عقله ليجد مبررات لذلك التخلف، «نحن هكذا»، أو «الاستعمار الفرنسي كان له دور في جعلنا نبقى على هذه العادات والتقاليد وننكفئ بداخلها»، أو «السلطة لعبت دورًا في ترك الجزائري غير قادر على عقلنة وجوده، حتى يكون خاضعًا أمينًا بل عبدًا ذليلاً»

كنت حينها أواجهه من أنّني لا أتحدث عن الآخرين؛ بل عنه هو كيف ينظر للمسائل فيرد متوجسًا من كلامي بنوع من التذمر «آه يا سميرة دائمًا تريدين وضعي في هذا المأزق»، فأسأله: «أي مأزق تقصد؟»، فيرد عليه وقد تعكر وجهه «الاختيار».

تساءلت باستمرار إن كان يخاف حقًّا من الاختيار، أم أنّه حسم المسألة في ذهنه. فكريًّا وثقافيًّا حداثي وعصري وعقلاني، وواقعيًّا مثل الجميع تقليدي، ولا يزعجني ذلك؛ لأنِّي لا أحب مواجهة المجتمع فأمتثل له وأخضع.

بقيت معه كالقطة والفأر، يجمعنا عشق ما، ولكن مفتوح على مآزق بالجملة، مشكلات كنت أرغب باستمرار في حسمها مع نفسي، وتساءلت إن كان ما أطلبه منه بالشيء المستحيل؟ وهل حققته أنا في حياتي حتى أطلب منه أن يحققه هو في حياته؟ ولماذا يبدو طريق التحرر العقلي صعبًا عندما يصطدم بعقبات الواقع، أي عندما يدخل مرحلة الممارسة.

كثيرًا ما رغبت أن أصرخ في وجه رشيد بهذه الأفكار المتناثرة، المكبوتة في داخلي، والتي كنت أقول إن لم تُقل لحبيبي؛ فلمن أستطيع قولها:

«الحرية لا معنى لها إن لم نمارسها، الحرية ليست فكرة مجردة، مع أنّنا نتعلمها كذلك، ونتركها مخبأة في مكان ما من

ذاكرتنا، وعندما نحاول تجربتها في الواقع نصطدم بألف «لا» ناهية تستنكر علينا ذلك، توقفنا عند الحدود، تحاسبنا عليها محاسبة لعينة، حتى نتراجع، ونكره الفكرة من الأساس، حتى نصبح نحن أعداء الحرية، نحن من يتفنن في قمعها من الوجود، لتظل مجرد خيال في الرأس، حلم في القلب، فكرة مغضوب عليها من آلهة السماء وآلهة الأرض...».

لا، كان الكلام في الحقيقة موجها لنفسي، وربما ظهور رشيد في حياتي كان مناسبة لأفاتحه بالأسئلة التي تجاهلتها مرارًا، وحاولت دون جدوى كبتها بشناعة في نفسي، و لم أخرجها للعلن إلا في تجربة حب يبدو أنها تنفتح على هاوية صرت أبصرها تقترب من بعيد.

لم أكن أعرف مع من أتحدث في الموضوع، كنت بحاجة إلى صديق قريب أصارحه بما يدور في ذهني من أفكار وفي وجداني من مخاوف، زميلتي في الغرفة الجامعية، لا يسمح لهما مستواهما بمناقشتي وهما عادة ما يتجنباني لهذا السبب بالذات... كانت لينده صريحة على الأقل وهي تقول لي: «أنت مريضة بمرض اسمه القراءة والكتب وهذا العالم لا أقترب منه؛ لأنه يبعدني عن عالمي».

هي تحب ممارسة الحياة، واستغلال الرجال لتحقيق ما تريد، تظهر لي غاياتها في الحياة بسيطة وعادية على عكس ما

تعتقده هي إذ تراها كبيرة وأحيانًا مستحيلة... هي تفكر في المال، في الوصول إلى الرجل الذي يخرجها من كل هذا دون فلسفة أو «تكسار راس» على حد قولها...

ليندة الشقية رغم روحها المرحة، وجسـدها الجميـل، الذي تحرص على أن يكون دائمًا في مقدمة المشـهد، هـو السلاح الأول الذي تثير به لعاب الرجال، وهو الواجهة التي تريدها فاتنة وخلابة وتركع كل قهار متجـبر... أضـحك عندما تتكلم بهذه الطريقة، وأسألها: «ألا تخـافين أن هـذا السلاح وحده غير كاف في المعركة» تسخر مـني بسـرعة «معركة... بعيد الشر عليَّ المعارك ..»، ثم بسخرية أكبر «أنا أستمتع فقط... هذا الجسد لن يشرب منه إلا سعيد الحـظ صاحب المال والنفوذ، الذي سيقنعني أن حياتي سـتتغير إلى الأفضل، ما يهمني هو أن أخرج من حياتي السابقة إلى حياة جديدة ومختلفة...».

كانت زميلتنا شريفة تغضب دائمًا من سهر ليندة شـبه اليومي خارج الإقامة الجامعية، وعودتها في وقت متأخر، وهي تترنح من السكر، وروائح السجائر، فتثور ثائرة شريفة الـتي بسرعة تخفت بعد أن أتدخل كحكيمة مصلحة بينهما...

عادة ما تستيقظ ليندة مهدمة من ليلة السهر والتعـب وشرب الكحول، ولكنَّها بمجرد أن تستحم ترجع لها عافيتها

وترتدي ملابسها وتذهب للدراسة، فهي مصرة رغم ذلك على أن تحافظ على خيط يربطها بالجامعة... تقول لي بصوت خافت لا تريد أن يسمعه غيري: «لأنها ورقتي الثانية إن فشلت في العثور على ذلك الرجل...».

كنت أغار من جرأتها في الحياة، وأتساءل إن كنت أستطيع أن أكون مثلها، وأرد بسرعة على نفسي «كلاً، هذا مستحيل، أنا حذرة ومنطقية، ولا أرمي بنفسي في التهلكة، وعليَّ أن أنجح في الدراسة والمعرفة، وأحقق وجودي كمثقفة في عالم الرجال».

شيء ما في داخلي كان يجعلني خائفة على ليندة، أتعامل معها كما لو كانت شقيقتي التي تعذبت كثيرًا في حياتها الزوجية، وبطريقة غير مباشرة أحاول أن أمرر لها بعض الرسائل:

«أنت رائعة ولكن لا تنخدعي بضعف الرجال، أحيانًا يأخذون وقتهم فقط للنيل من المرأة».

أمَّا هي؛ فنادرًا ما شعرت بأنَّ ما أتكلم به خطبُها بالفعل، كانت من ذلك النوع من النساء اللواتي يثقن في ذكائهنَّ حدَّ البلاهة، وكان ذلك ربما هو مصدر خوفي عليها، كانت ترد عليّ بسخرية:

«لا تهتمي بأمري فأنا أعرف طريقي جيدًا، لقد رسمت لنفسي هدفًا، وسأسعى إليه كي أحققه، أما أنت فتمسكي

برشيد على الأقل هو وسيم وصاحب مهنة محترمة، لا تتركي امرأة مخادعة تأخذه منك...».

كانت تلك هي العبارات الشائعة عند النساء جميعهن: «إذا وقعت على رجل تمسكي به حتى...»، ماذا؟ الزواج... الأسرة... البيت... الحياة العائلية... الوظيفة الزوجية... ثم أليس هذا هو المطلوب من المرأة تأديته كدور في حياتها الخاصة وحياة المجتمع الذي تنتمي إليه، لماذا أعترض داخليا على ذلك؟ أعود لسؤال الحرية من جديد، ولكن هل تحقيق حريتي هي التي ستسعدني في الحياة؟ وما هي نوعية السعادة التي تأتي من الحرية... أليس هذا ما يخيف رشيد... الحرية هي الاختيار في النهاية، أن نكون أحرارًا في اختيار ما نريد وهذا يؤدي إلى السعادة النفسية وحتى لو ترتب على حرية الاختيار مصير قاتم أو وضع مؤلم... لا يهم... الحرية تجعلنا نتحمل هذه المسئولية... وعلى عكس ما ظننت أو توهمت كانت ليندة أكثر حرية في الواقع مني، كانت تقوم بتجربة اختيارها عن عمد ربما لغايات سيئة، لا يهم، لكنَّها تمارسها في الواقع دون أن تواجه مثلما أواجه أنا عشرات الأسئلة المقلقة والمربكة التي بدل أن تجعلني أتحرر في الواقع أتحرر ذهنيًا فقط... أتقبل الحرية كفكرة مستعدة أن أدافع عنها في نقاشاتي وكتبي إن كتبت يومًا لكن لو سألني شخص:

وكيف جسدت هذه الحرية في حياتك؟ سأصاب بجلطة صمت، ولن أجد التجارب التي تسعفني في التدليل على ما أدافع عنه كحق إنساني نبيل...

على عكس ليندة كانت شريفة تعيش في عالم صمتها الكبير، منطوية على ذاتها ولا تُظهر من شخصيتها إلا القليل، ولقد بدت لي باستمرار كفتاة قبلت مصيرها الحياتي كما رُسم لها من طرف العائلة، ستتزوج من ذلك البقال المتدين كما حدد لها القدر ذلك، والقدر هنا هو العائلة التقليدية التي ولدت فيها، الحي الفقير الذي تسكن فيه، المجتمع المتمسك بسلطة تقاليده بكل شراسة وعنف، هي ليست متمردة على كل حال، وعندها قبول مبدئي للخضوع، وعندما أفتح معها الموضوع، لا تحاول التهرب من وضعها هذا، بل أجدها معتزة بنمط حياتها كما هي، وأنّها لا تريد أن تكون مثل هذه «المعتوهة» ليندة وهي تحتج حين تذكر اسمها بصوت مرتفع «هل ترين ما تفعله بحياتها تلك المعتوهة حياة كريمة لامرأة»، أرد عليها بصوت منخفض حتى أقلل من حجم غضبها منها «كل إنسان حر في اختيار الحياة التي يرغب فيها... وما ترينه أنت إهانة لها قد تراه هي عين الكرامة بالنسبة لها، والعكس صحيح، المهم أن يختار الإنسان بنفسه، ولا يفرض عليه الأمر من أية جهة تعطي لنفسها صلاحية لوصاية على عقولنا...».

عندما تريد شريفة سبي تقول عني أنّي فيلسوفة، وتضيف ببعض السخرية: «وأنا لا أحب الفلسفة. إنّها تقود الناس إلى الكفر والابتعاد عن الشريعة السماوية التي هي وحدها المقياس في تحديد الخير من الشر، والحلال من الحرام».

عادة ما أتجنب الحديث معها؛ لأنّها بسرعة تحول النقاش من ميدان دنيوي أرضي إلى مجال ديني محض، فأضطر إلى أن استمع إلى موعظة دينية طويلة، هي تحفظ الكثير من السور القرآنية والأحاديث النبوية، حيث لا تملّ من الاستشهاد بهما في كل صغيرة أو كبيرة، وهي تحاضر في مسجد الجامعة ضمن حلقات دينية مع من تسميهم أخواتها في الدين كل أسبوع، وتعرف كيف توجه النقاش نحو طريق واحد.

كثيرًا ما أغضبتني؛ لأنّها كانت تستعمل ذلك كتقية لتجنب الخوض في أحاديث خاصة، عن هواجسها الفردية، الأشياء التي تحس به ولا تقولها، رأيها في ذلك الرجل الذي اختير لها مثلاً، وهي ترفض عن عمد أي دخول في تلك المناطق العميقة والمسكوت عنها وتفضل أن تحول النقاش إلى موعظة دينية حسنة...

لسوء حظها وضعوها في غرفة فتاتين مختلفتين عنها،

كانت ربما تتمنى أن تتواجد في غرفة مع أخواهّا في الــدين، اللواتي يرتدين نفس زيها الشرعي الحجاب، ويفكرن مثلمـــا تفكر ضمن حدود محددة مسبقًا، ويعشن مثلـــها عيشـــة في الطاعة التامة والأخلاق الحميدة، ويعتقدن في ثبات موقفهـــا وصحة اعتقاداهّا...

بينهما كنت أنا، ليندة الخارجة عن القانون، وشـــريفة الخاضعة للقانون، ولا أدري كيف كنت أجـــد نفســـي في كليهما، وأحدث ذلك التوافق بينهما عنـــدما يتشـــاجران ويختصمان، كنت فرحة أن أكون في ضفة مختلفة، في ضـــفة شبه محايدة، لست هما، وأنا هما أيضًا، مصنوعة من كليهمـــا التمرد والخنوع، مقتنعة بفكرة الحرية ولكن أرفض تجربتها في الواقع، أو أخاف تجربتها، كما لو أنّي في جزء مني مؤمنـــة بكلام شريفة أنّ على المرأة أن لا تهـــين نفســـها، لا تـــدمر نفسها، لا تترك الشيطان يهيمن على روحه فيفسدها ويلوثها بالدنس والرذيلة، ومؤمنة في جزء آخر بحياة ليندة وجرأهّا في عيش حريتها بالصورة التي ترغب، أليس هـــذا مـــا أريـــده حقًّا... أن أكون مثل ليندة لا غير... لكني في الحقيقة كنت أعيش مثل شريفة لا غير...

***

بعد ثلاث سنوات من تقاسم الغرفة الجامعية مع ليندة وشريفة صرت أعرفهما جيدًا، وصارت مشاعري نحو كلتيهما أوضح، رغم تناقضها المطلق، وجدت نفسي في كل واحدة منهما، سواء أكانت متمردة أو محافظة، متفتحة أو مغلقة، إنَّهما يمثلان وحدهما نساء الجزائر أجمعين، بين من تظل خائفة وتحول الخوف إلى طاعة عمياء لكل ما نرثه من الماضي من تقاليد وطقوس وأفكار وخط سير، وبين تلك التي تحاول أن تقذف بنفسها في حياة جديدة ولكن خطرة، تجبرها على كسر قيد الماضي، ولكن بحثًا عن حياة متوهمة وتربطها بالنجاح المادي؛ لأنَّ النساء إلاَّ فيما ندر يغرمن بالمال كما تغرم نساء أخريات بالله... وهن ربما في كل هذه الطرقات المتناقضة يعبرن عن رغبتهن في التحقق تحت سلطة ما تعطي لهم الحماية والطمأنينة... وهذا ما لا يفهمه الرجال على كل حال، عند لرغبة تصور مختلف للسعادة تربطه بالأمان، حتى تستطيع أن تعيش وإلا فهي من البداية محكومة بالهزيمة المسبقة.

بقدر ما كنتهما معًا كنت مختلفة عنهما من حيث إنَّني كنت الوحيدة من بينهم التي أفكر في تجاربهما المختلفة، وقدر لي أن أعرف في هذه الفترة مصيرهما أيضًا، لقد خسرا طريقهما في النهاية، ولم ينجحا في الوصول إلى تلك البقعة الآمنة من الحياة...

شريفة رغم كل ما كانت تظهره من رغبة في الزواج بذلك البقال؛ إلاَّ أنَّها كانت ترغب أن تكمل دراستها حتى تنال الشهادة، كان ذلك هو شرطها الوحيد الذي اشترطته من زوجها المستقبل، لكن بعد ثلاث سنوات من الخطوبة استطاع البقال أن يقنع عائلتها بأنَّه حان الوقت للزوج منها، وأنَّه بعد الزواج لن يوافق على أن تكمل زوجته الدراسة أو تخرج من البيت دون رجل محرم...

لا أدري كيف تلقت شريفة ذلك القرار، ربما تلقته بصدر رحب، ربما ارتجت هلعًا، ربما تمنت لو كان بمقدورها أن تثور، أو تقنع زوجها المستقبلي أنَّها بحاجة إلى تلك الشهادة، فقط الشهادة وليس شيئًا آخر، وربما لم يحدث أي شيء من هذا وخضعت مستسلمة كما فعلت دائمًا، ولم تناقش القرارات التي تأتي من فوق، وغادرتنا في بداية السنة الأخيرة من الدراسة قبل نيل الشهادة...

أما ليندة؛ فالحكاية كانت مختلفة، ولكن مرعبة أيضًا، لقد استمرت في حياة السهر الليلي مع عشيقها الذي كانت تراه مستقبلها الواعد، لم أشاهده إلاَّ في بعض الصور، كان يبدو شابًا في الخامسة والعشرين، ابن الفخفخة والعز، ولم تذكر لي من ثروته إلاَّ أنَّ والده يملك عدة مصانع في وهران وعنابة، وأنَّه يعدها بالزواج قريبًا، ورغم كل ذلك الإغراء

المادي الكبير؛ إلاَّ أنَّها كما تقول لا تتركه يلمسها إلا سطحيًّا، ولن يصل إلى عين البئر حتى يضع الخاتم في أصبعي وحينها أقول: «آه أخيرًا وصلت»؛ لهذا كانت تقبل السهر معه في الكازينوهات والمطاعم الفخمة وترفض أن تذهب معه إلى فيلته الكبيرة في سيدي يحي، أو تقبل أن تقضي ليلة معه في أي فندق يقترحه عليها وهي تردد على مسمعي نفس الكلام: «الرجل عندما يصل إلى غايته يهمل المرأة بسرعة ويتركها تجري وراءه كالكلبة، وأنا لن كون كلبة أحد...»، كانت تلك الثقة الزائدة عن اللزوم هي سبب خسارتها على ما أظن، هي سبب وقوعها في الفخ...

أذكر جيدًا ذلك اليوم عندم جهزت ليندة نفسها كالمعتاد بلباس تختاره بعناية يبرز مفاتن الصدر والمؤخرة، المناطق التي حسبها هي نقاط القوة في المرأة والضعف في الرجل، كانت جميلة ومنشرحة، وهي تخبرني أن عشيقها حضر لها مفاجأة، وبالنسبة لها حتمًا سيقدم لها خاتم الخطوبة، أرد عليها مازحة: «يخطبك في البار... راكي أمليحة في عقلك»، فترد عليَّ منبسطة: «المهم الخاتم ثم زيارة بيتنا هي العملية الأسهل»، أتمنى لها تحقيق ما ترغب، ترتدي حذاءها ذي الكعب الطويلة، أتأملها لأول مرة بعين معجبة بشكلها الجميل، وأتمنى في قرارة نفسي أن أصبح مثلها أستطيع أن أفعل بحياتي ما

أشياء ما دمت واعية بما أفعل، ما دمت أدرك وأفكر وأحسب لكل خطوة أخطوها... ثم أتذكر أنّي في علاقة برشيد الذي يخفق له قلبي حبًّا، لكن عقلي صار يرفضه رفضًا.

سلمت عليَّ ليندة وخرجت مسرعة، لقد طلب منها عشيقها عن طريق الهاتف أن تنزل؛ لأنّه ينتظرها منذ نصف ساعة بسيارته الجديدة قرب الإقامة الجامعية...

ودعتها بعينيَّ حتى غادرت الغرفة، ثم قمت ناحية النافذة وبقيت أتطلع إليها حتى خرجت من الباب الحديدي الكبير وتخيلتها سعيدة، وهي تحقق ما رغبت في تحقيقه من البداية...

لم أتصور الحياة سيئة إلى هذا الحد، كان من عادة ليندة أن تعود في ساعة متأخرة من الليل بعد السهر الطويل، وكانت على تفاهم مع حارس الإقامة الذي يدفع له عشيقها مبالغ مالية كبيرة كي يفتح الباب ويغلقه في أي وقت يريد، لكنها لم تعد ليلتها، وفكرت أنها ربما قررت أخيرًا قضاء ليلته معه، ربما أقنعها خاتم الخطوبة بذلك، ربما استسلمت أخيرًا لمنطق لأشياء بعد طول ممانعة من طرفها وطول مراودة من طرفه... وظننت أني في الصباح سأجدها في الجامعة وستحكي لي كل شيء... لكن لم يظهر عليه أي خبر... حتى في المساء لم تحضر للغرفة، حاولت أن أهمل أمرها من رأسي قائلة إنه ربما تعيش معه أجمل لحظات حياتها وأن

أوسوس نفسي على ما يمكنه أن يحدث لها... لكن بعد غياب دام أسبوعًا بأكمله تملكني القلق والوسواس الخنس تمكن من كامل عقلي، ولهذا قررت السؤال عنها في بيت أهلها، قائلة ربما أنه جاءها العشيق ليخطبها، وهي الآن تعيش حياة حلمها أخيرًا... لكن ما تصورت أن ما ستخبرني به أختها كان شيئًا مريعًا... قالت بصوت متكسر: إنها مريضة... مريضة جدًّا، ولم تشرح التفاصيل... تركتني أغلي، ولا أحتمل جمودي أو عدم قدرتي على فعل شيء وبكل هذه الأسئلة التي واجهتها بحرقة: ماذا حدث لها؟ وكيف ما كان حلمًا تحول إلى كابوس...

عرفت القصة بعد أن سافرت إلى مدينة تيارت، ركبت سيارة أجرة جماعية من نوع 405، بعد رحلة طويلة ومتعبة، ذهبت مباشرة للمستشفى حيث أخبروني أنها تعالج هنالك، وصلت في المساء، على الرابعة تقريبًا، وجدتها في سرير لمرض مخدرة من الأدوية التي قدمت لها، ما أن لمحتني حتى زاغت بنظرها عني، وكأن زيارتي زادت من حدة ألمها، بصعوبة تحدثت معي، وباختصار كانت القصة مروعة، لقد أخذها الكلب في سهرة ليلية كالعادة... وضع لها مخدر في كأس الشامبانيا الذي تشربه، ثم أخذها في سيارته إلى فندق يعرف صاحبه، اغتصبها دون أن تكون مدركة ماذا يحدث لها،

استيقظت في الصباح وجدت إزار السرير الأبيض ملوثا بدم بكارتها... ترك لها كيسًا أسود صغيرًا محشوًا بحزم من ورقة الألف دينار... لقد أخذ منها ذلك دون حتى أن تشعر بالأمر، احتاجت وقتًا لتبكي وتتألم وتتأقلم مع الواقعة، النهاية شاهدته في تلك اللحظة، قامت من على السرير، أخذت حمامًا سريعًا، ارتدت ملابسها، حملت الكيس الأسود مع حقيبتها اليدوية، خرجت من الفندق وكل شيء فيها منهار، تمكنت مع ذلك من توقيف سيارة أجرة، طلبت منه أن يأخذها إلى مدينة تيارت، لم تتفاوض معه عندما راح يقترح عليها مبلغا كبيرًا... بعد رحلة طويلة أيضًا... وصلت إلى بيتها العائلي، تسكن في الشقة رقم 11 الطابق الثاني، دخلت البيت، شاهدتها الوالدة في حلة يرثى لها... طلبت من والدتها ألا تتكلم معها وتتركها ترتاح... دخلت غرفة نومها... فتحت شباك النافذة وألقت بنفسها من الطابق الثاني... تعجبت أنها فعلت كل ذلك وهي في غيبوبة... غابت عن الوعي، والواقع، وحتى الكيس الأسود المليء بحزم ورقة الألف دينار نسته في سيارة الأجرة، وألقت بنفسها من الشرفة وسمع دوي على الأرض، ويا للمعجزة لم تمت حينها، نقلت إلى المستشفى على وجه السرعة، أخبرتني أن الطبيب هو الوحيد الذي فهم القصة، ولم يخبر عائلتي بما حدث لي، لم

يقل شيئًا، فقط أنها انزلقت وسقطت، ولم يذكر العلة الأولى لذلك، قال لي: أعدك بشرفي أن هذا سر، لكن عليك بالحياة... لا تفكري في الموت... كل شيء يمكن إصلاحه مهما عظم حاله...

ليندة أفرغت قصتها بألم في النفس وبكاء حاد، أبكتني معها، سمح لي الطبيب أن أمكث معها في نفس الغرفة، كان يبدو متعاطفًا جدًا مع حالتها، حاولت من جانبي أن أرفع معنوياتها قدر المستطاع، لكنها كانت بالكاد قادرة على الحديث وعلى رؤية المستقبل...

لم تعد ليندة منذ تلك الحادثة إلى الجامعة، لقد تركتني هي الأخرى مثلما حدث الأمر بعد زواج شريفة وحدي... لقد فقدتهما معًا في نفس السنة، لقد أخذا من روحي قسطًا كبيرًا أثر عليّ بعدها بشكل شيء، خاصة في علاقتي برشيد التي قررت أن أضع لها حدًّا...

لم تكن تهم الطريقة التي قررت أن أنهي بها علاقتي به، كنت وصلت إلى قناعة أنّي لا أريد زوجًا سينقلب عليَّ لا محالة إن آجلاً أو عاجلاً.

* * *

انتهت علاقتي برشيد في تلك الفترة المعقدة من حياتي، لا تحتاج الحياة إلى مخططات كثيرة كي نوهم أنفسنا أنّنا نستطيع ضمان شيء ما، من الأحسن أن يتعلق الإنسان باليوم الذي يعيش فيه، كيف يقضيه، ويحاول أن يكون فيه أسعد كـائن على وجه الأرض ولا يهتم بالغد، كل المشكل تأتي من انتظار الغد، الأمل الكاذب في المستقبل، لقد قررت من تلك اللحظة ألا أركز طاقتي وتفكيري إلاَّ على تلك الأشياء الملموسة التي تسعدني ولا أبالي بكل ما يثير غضبـي أو نقمتي أو يجعلـني أسيرة القلق من آثاره السيئة في المستقبل.

صرخت: الحياة الآن... الحيـاة الآن... الحيـاة الآن، وليس غدًا.

فكرت هكذا، أو رغبت أن أفكر بهذا الشكل، كنـت حتى هذا الوقت أشعر أنّي أتحكم في زمام نفسـي، وأنّـي وحدي من يصنع قدري، سواء أكان حسنًا أم سيئًا، أنا من سيختار الطريق الذي أسير عليه، ولن أسمح لأي نذل أن ينال مني، أو ينقص من شهيتي للحياة وإيماني بالأمـل وتمسـكي الحلم، وبهذه العزيمة الحديدية قررت أن أعـيش، أن أدرس، أتنفس الحياة بروح متفائلة، وقلب مقاوم، ربما كنت ساذجة أو حالمة، أو متمردة مثالية، فرغم كل ما تشـاهده يحـدث أمامك من هزائم وانكسارات لناس عرفتهم بلحمهم ودمهم

ومشاعرهم، وتأثرت بما وقع لهم، لكن تظل تؤمن بأنّك ستنجو من صدمة الواقع، ومطبات الحياة، أو تعتقد أنّك ستحصن نفسك بما يكفي لكي لا تنزلق، لكي لا تذهب في طريق يقودك إلى تلك الهاوية التي سقط فيها غيرك، مع أنّ الهاوية لا تلعن عن وجهها من البداية، هي تشبه ضوءاً بعيدًا يستدرجك ببطء، ترتعب منه في البداية، تقول إنّه ليس ضوء النجوم الهادية، ولكنّه أقرب إلى الضوء الذي يستدرج الفراشات حتى يتمكن من قتلها في النهاية، ولكن كما لو أنّ البشر مبرمجون بطريقة ما على الانجذاب حتى لتلك المهاوي المرعبة، والطرق الخطرة التي لا نعرف بالضبط إلى أين تقودنا، ربما هو الفضول من جهة، وتحدي الخوف من جهة أخرى، ربما الثقة العمياء في النفس، والاعتقاد أنّ ما يحدث لغيري لن يحدث لي بالضرورة، مثلما عندما نسمع بموت شخص قريب أو بعيد، نتألم ونذرف الدموع، وننسى بعدها موته ذاك، أو نخبأ فكرة موته في مكان غامض بذاكرتنا، حتى نستطيع الاستمرار بشجاعة في الحياة، حتى لا يموت فينا الشغف، الإحساس الخفي بالعالم الذي يحتوينا، وبالمغريات الكثيرة التي نعتقد أنّها مخبأة في زوايا كثيرة من هذا الوجود، وهي تنتظرنا لنقتطف منها بعضا من تلك السعادة المأمولة...

هل يكذب الإنسان على نفسه؟ هذا أكيد، لكن المدهش

أن نصدق تلك الأكاذيب، أن نؤمن بها حتى نفقد مرات عقولنا، نفقد في سبيلها ذلك الوقت القصير الذي نعيشه هنا، ثم نرحل إلى عالم لا نعرفه عنه الكثير...

لم يكن عندي فقط رغبة في الانتصار على الهزيمة التي كنت أشعر أنَّها تنتظرني في مستقبل ما، ولكن أن أفتك من الحياة بعضًا من أنوارها المبهجة، تلك اللحظات التي يمكن أن تختزل الزمن في كثافة عميقة، هي كل ما يجب أن نحققه في دنيا لا تهتم كثيًرا بوجودنا، الحياة بوصفها ذلك اللغز المبهم، والذي سيظل البشر يبحثون له عن تفاسير عقلانية تارة، وغيبية تارة أخرى، كنت متأكدة أن تفسيرها سيكون نهاية للبشرية، فأجمل ما في هذا الوجود مناطقه الغامضة، تلك التي تجعلنا سؤالاً أبديًا لا إمكانية للإجابة عليه، سؤالاً لا نتوقف عن طرحه، ونحن ندرك أنه بلا إجابة.

كانت الأمور ستكون أجمل بعد انفصالي عن رشيد، واعتقادي أنِّي بحريتي تلك سأحقق ما أريد، يا للسذاجة التي كنت عليها حينذاك، وتيقني أنِّي سأنغمس في الدراسة والعمل لا غير، ليذهب الرجال إلى الجحيم، لا أريدهم على الأقل في حياتي الآن، أو سأعلق مشاعري نحوهم إلى حين، ربما لأنِّي كنت مؤمنة بالحب، مؤمنة بهذا الشعور الذي يعطي فرحًا غامرًا في القلب حتى لو كان مبنيًا على أوهام المرأة وخيالاتها

اللانهائية، المرأة عندما تعشق تحلق بجناحين كبيرين في السماء، وتظن أنَّ الرجل مثلها، الرجل عندما يحب يضع قدمين ثابتتين فوق الأرض، يريد أن يمسك الحمامة ويضمها إليه حتى لا تطير بعيدًا، هو يرجعها إلى الواقع، هو يذكرها برعشة جسدها المدفونة في الحب، ويخلق فيها رغبات مثيرة، هي لا تهتم أول الأمر، ثم بفضله تتفطن إلى أن الحب يتجلى في الجسد، في الحواس النائمة، والتي آن وقت استيقاظها، وفي الرغبة تتجلى الحقيقة، ويتجلى الفناء في المحبوب، وحتى يتجلى الموت...

كان كل شيء سيكون كما تصورت لو لم يظهر صادق سعيد فجأة في حياتي، عندما شاهدته أول مرة كاد قلبي ينخلع، شعرت نحوه بحب قويّ، وغريب، أستاذي في مادة الرواية، كلامه ساحر، نظرته مثيرة، شخصيته قوية، يتكلم بشاعرية، ويستفز الطلبة بأسئلته الجديدة، أحببته من ذلك اليوم الذي حضرت فيه لأول مرة إلى مدرج (أ) بالمعهد كي أتلقى طرائق تحليل الرواية، ولم أخبره بشيء، بل لم أقترب منه، بقيت أنظر إليه من آخر صف في المدرج حتى أكمل إلقاء المحاضرة، وراح يجمع أوراقه بهدوء في محفظة جلدية، ثم قام منصرفًا، بقيت لشهور أحس نحوه بتلك الجاذبية الغريبة، بذلك الحب المثير، أرقبه من بعيد، ولا أجرؤ على الكلام معه حتى عندما يسمح لنا بطرح أسئلتنا على محاضراته، كان يمكنني أن أتناقش

معه، وأظهر له أني متميزة، أنّي جديرة باحترامــه، وتقــديره، وحتى بحبه، لكنّي فضلت التكتم والصمت، كما لو أنّي خفت، و لم أرغب أن أفسد تلك المشاعر التي كانت تنفجر بــداخلي ببراءة وصدق، خفت أن يكون رد فعله ســيئًا، وسيصـــدمني حينها، سيجعلني أكره نفسي، وأكره الحب، وأكره الدراســة، وأكره العالم من حولي... لا، لن أقترب منه، لن أفصح له عــن أي شيء، أنا من بعيد سعيدة معه بهذا الشكل حتى لــو ظــل يؤرقني ذلك، ولكن حتى لا أفسد ذلك الشعور الجميل التزمت الصمت، لقد كنت بشكل ما مرتاحة، أنا هكذا أحسن، إنّــني أدرس جيدًا، وأحسني من الداخل ممتلئة به، وبالأشياء الجميلــة التي يصنعها لي في خيالي...

ثم طلب منّا بحثًا في موضوع يخص الرواية العربية، فأنجزته في ظرف قياسي، ربما يومين، وقدمته له، استغرب أنّي لم آخذ وقتًا أطول، و لم يقل لي شيئًا، أخذ أوراقي وفي الغد عندما جاء للتدريس، سأل عني أحد الزملاء، ثم طلب منه أن يحضرني لــه، فجاءني الزميل مرتبكًا وسألني: هل فعلت شيئًا سيئًا حتى يطلبك الأستاذ صادق؟ وأضاف: ليس من عادته أن يسأل عن الطلبــة بهذا الإلحاح؟ لا أدري ماذا دار في ذهني لحظتها ولكني ذهبــت للقائه، فوجدته جالسًا يقلب في أوراقي التي قدمتها له، ثم رفــع نظره نحوي، وهنأني على بحثي الذي قدمته، وأطــال الشــكر

والثناء حتى شعرت بالخجل، من ذلك اليوم صار يعرفني ويصر على أن يتحدث معي، ويقدمني لكل الأساتذة على أنّي طالبة متميزة وسيكون لها مستقبل رائع في الدراسة.

ثناؤه جعلني أفخر بنفسي، لكن الذي أسعدني أكثر هو أنه صار يعرفني بالاسم، وصار يناديني بـ (سميرة) كأني صديقة قديمة يعرفها من زمن بعيد، وكان ذلك مصدر فرح لا نهائي، وصار يدعوني حتى أن أشرب معه القهوة أو الشاي، وحتى لو كنت أعرف أنه يذهب للشرب في الحانات؛ إلاّ أنّه لم يعرض عليّ ذلك يومًا، ولا أدري كيف كنت سأتصرف حينها، فرغم ثقتي العمياء فيه، كنت متحفظة من أن أظهر بصورة المرأة التي تكسر القيود ليلعنها الناس، وخاصة أن تلك الفترة التي يمكنني تسميتها بالذهبية في علاقتي بصادق، كان الكثير من الذين يكنون له البغضاء والغيرة والحقد يحذروني من ذلك الشيوعي الأحمر، ومن خبث نفسه وطريقة عيشه اللاامبالية، وتهتكه وأخلاقه العربيدية المشينة، فلم أهتم بكلامهم؛ لأنّه لم يظهر نحوي ما يسيء له لا كرجل ولا كأستاذ قدير، أو ما يجعله في نظري دنيئًا ويستحق النبذ، والهجر، ثم هو لم يكن يضغط عليّ لأكون معه، هو كان حريصًا فقط أن يساعدني في طريقي الذي شعر أني أسلكه متحدية ظروفي وثقافتي التقليدية، التي

قال لي بصددها: لا أحد منا ولد حـــداثيًا، نحـــن نولـــد في عائلات قديمة ونحاول مع ذلك أن نشق طريقنا نحو عصـــرنا بجهدنا الثقافي، ورغبتنا الكبيرة في الحرية...

كان كل شيء ورديًا تقريبًا حتى ظهرت سارة حمادي.

أو حتى عرفت أن له علاقة بها، لا أدري مـــن أخـــبرني بذلك، في لحظة تهاوى قصر الرمل الذي بنيته بنفسي منـــذ سنوات، وتلاشى الضباب عن عيني، وأخيرًا عرفت مصـــير حبـــي الصامت إلى أين سيكون بعد أن وقعت الفأس علـــى الرأس...

كان ذلك هو شر عقوبة يمكن أن تقع علـــى قلبـــــي، وفكرت أن هذا ما كنت أحدسه منذ فترة، آخر الطريق هزيمة لعينة توقع بـــي من أعلى إلى أسفل، ترميني كجثة غرقـــت في وسط البحر على شاطئ مهجور، وتتركني هنالك، مرميـــة في الرمال الملتهبة، في فراغ مهول، بإحساس الضحية...

ما حدث بعدها هو محاولة تصحيح خطـــأ بـــالوقوع في أخطاء كثيرة، ربما كان عليّ أن أكون قويّة أكثر، وأنســـحب بشجاعة، ألا أترك نفسي لذلك العذاب المرعب الذي عانيتـــه ليال طويلة بأكملها، باكية، مجروحة، تنزف دمًا ودموعًا كثيرة.

بعدها لم أعد أعرف ماذا يجب أن أفعل، وكيف وقعت في شبكة عنكبوت نسجت حولي خيوطها باقتدار شـــديد،

وصارت تمنعني أن أتحرك خارج دائرتها السوداء...

لا أتحرك وأتألم، حاولت أن أستحضر قوتي الداخلية، ما تعلمته من القراءة والكتب، وما ظننت أني استفدت منــــه في حياتي من حياة المهزومين الذين شاهدتهم يتساقطون أمامي، ولكن لا شيء من هذا تحقق لي، وأنا أتحدث بهذه الصــــورة سيسخر مني البعض، سيقولون عني إنِّي بلا قوة، إنِّي تركت نفسي أنساق وراء وهم صنعته لنفسي، ثم عندما زال الوهم ظهرت حقيقتي، ضعيفة، منهزمة، فاشلة، هل يستطيع الحب أن يحولنا إلى خيط رفيع من دخان يتبعثر في فراغ مظلم... لا أدري. ولكن هذا ما حدث معي، وبدل الانسحاب، بدل أن أفلت بجلدي، بدل أن أرمم ذاتي، وجدتني أقاوم المســـتحيل كي أفتك بالرجل الذي لم يكن رجلي...

لم أحصل على شيء، ومن جهته، لم يكن يدرك شــيئًا عن مشاعري نحوه، أو حتى لو أحس بتلك المشاعر التي أكنها له لم يكن ليبالي بأمرها، كان يبدو سعيدًا في حبه مع سارة، وكانا يظهران وكأنَّهما روح واحدة، وهذا ما كان يزيد من تأجيج غيرتي، حسرتي، رغبتي في أن أنتقم منهما معًا، أمــــا كيف؟ فهنا بدأت قصة الانحدار، هزيمة وراء أخرى، لم أجد إلا صديقه الوحيد فاروق لأنتقم من خلاله، لكن لم أتصـــور ذلك الصديق الذي وهبته جسدي أنَّه ســيقع في حبــــي

بشكل مجنون وغريب، ذكرني بحبي المجنون والغريب لصادق، لماذا حدثت هذه الدوامة العجيبة؟ وكيف تورطت أكثر في طريق هاويتي، بدلاً من إصلاح حالي، وأصبحت شريرة، خبيثة، بل امرأة مدمرة تستطيع تدمير من يحبها وحتى من لا يحبها، تدمير كل من يقترب مني، كل من يريد أن يكون معي؛ لأنِّي لا أستطيع فقط أن أكون معه هو...

الجسد صار هاوية، أتفنن في إيذائه، تمريغه في أرض اللعنة، فاروق على عكس ما توقعت شغف بي، صار الجسد لا يكفيه، أصبح يريد قلبي، يريد شيئًا أكبر من الجسد، واللحظات التي نقضيها في الاستمتاع بحواسنا، يريد قصة حب، على منوال قصة حب صديقه لسارة... يا للعنة، كل شيء كان يعيدني لصادق، وحبي له، وحبه لها، وهذه الدوامة التي عندما تقتنصك فجأة تجعلك تائهًا ولا تعرف حتى ماذا تريد، ماذا تفعل؟ من تجرح في الطريق الذي تسير فوقه نحو هاويتك.

الحياة هكذا غريبة، ومجنونة، وهي تسير بك في طرق مختلفة، تعطيك الأمان مرة وتنزع عنك الأمل مرة أخرى، هي كلعبة تلعبها وأنت مغمض العينين، تتحسس بيدك وحواسك المخرج الذي تريده أنت لنفسك ولا تريده هي لك.

كان كل ذلك فوق الاحتمال، وكان عليّ في لحظة ما حسم الأمور، والهرب، أخبرت فاروق بحبي لصادق، صدمته باعترافي الوقح، كاد يضربني في تلك اللحظة، فرحت بذلك، «هو رجل» قلت في نفسي، سيجد في نفسه الطاقة اللازمة لبتري من حياته، أو ظننت هذا على الأقل، لكن لا شيء حدث، اختفى فترة ثم عاد يتودد إليّ، أفهم مثل هذا الشعور، لأنّي حاولت أيضًا أن أتودد لصادق دون جدوى، كانت دائرة جهنمية عمياء، وفي النهاية هربت، ولكن في طريق الهاوية أخذت لحظة واحدة منه، لحظة جسد لكن كأنّها لحظة روح ملتهبة، ثم تركته وسافرت...

ظننت أن تغيير مكان عملي إلى جامعة تيزي وزو سيغير من أمري، لكن عكس ما توقعت، بقيت متعلقة بذلك الرجل، أراسله كل مرة، أهاتفه مرات لأسمع صوته، تخلصت فقط من صديقه فاروق الذي لم أشفق على مشاعره وكنت بدوري أدفعه بنزعة تدميرية واضحة إلى طريق الهاوية نفسه الذي كنت أسلكه، ربما لا شعوريًّا كنت أتلذذ بعذابه، حتى لا أتعذب وحدي، حتى لا أنهار بمفردي، لقد تغيرت، صرت إنسانًا آخر من الداخل، وحتى لو جدت لنفسي التبريرات الكافية كي أستمر في تلك الحالة، كما لو أنّ شيطانًا رجيمًا سكنني من الداخل وأحكم قبضته عليّ، وقرر أنه لن يطلق

سراحي إلى أن أموت...

جاءتني بعدها الضربات موجعة واحدة وراء الأخرى، حتى ظننت أنّي امرأة سيئة للغاية حتى يقع لها كل ما وقع، فكرت في الانتحار عدة مرات، لكن لم أملك الشجاعة الكافية لفعله.

صرت أنتظر مخلصًا ينقذني من حياتي.

شخص يأتي من السماء، أو من العدم وينهي هذه المأساة التي لم أعد قادرة على تحملها، حتى لو بقيت ظاهريًّا غير مستسلمة... هل كنت أوهم نفسي أن سارة ستغادر صادق وسيعود إليَّ... ربما كنت أحلم في مكان ما بحدوث شيء من هذا القبيل، معجزة تغلق باب المأساة إلى الأبد، وفي جانب آخر كنت أريد الخلاص النهائي، يجب أن أعترف بأنّي أخفقت في التحقق داخل هذه الحياة... وأن إصلاحي صار مستحيلاً، ولا أدري إن ظلمتني الحياة، أم ظلمت نفسي... لا أدري حقًّا ماذا حدث حتى وصلت إلى هذه النقطة السوداء، وصارت رغبتي الوحيدة هي أن أغمض عينيّ طويلاً ثم أرحل بسلام عن هذا العالم القذر.

القاتل

-4-

لا أدري كيف تفطنت سميرة قطاش إلى وجــود شــيء غريب يحدث في تلك الفترة، حينمــا طلبــتني في الهــاتف، ورغبت أن نلتقي في إحدى القاعات الكــبيرة المخصصــة للشبان في ضاحية مدينة تيزي، فكرت في البداية أن أعترض على المكان، بحجة أنّي لا أحب مخالطة الشبان كثيرًا، ومثــل هذه الفضاءات يكثر فيها المراهقــون بصــخبهم وجلبتــهم وضجيجهم الذي لا يحتمل، وسألتها لماذا لا تحضر للبيــت كما كانت تفعل من قبل، لكن في النهايــة وافقــت علــى مضض، ربما كانت لها أسبابها لعدم المجيء، ثم لم أكــن قــد التقيت بها منذ أسبوعين تقريبًا، قالت إنّها فترة امتحانــات وستغيب عني، كنا في علاقة ما، لم نحدد لها تسمية بعينها، لم نقل حبًّا مثلاً أو صداقة مفتوحة مثل تلك التي توجــد بــين شخصين ناضجين لم يقررا شيئًا بينهما، ويتركان المجال زاخرًا بالاحتمالات، وكان ذلك يزيد من الإثارة، وحتى هذا اللعين

الذي نسميه الحب يصبح أكثر توهجًا في الداخل، لكن بما أنّي لم أكن أدرك رغبتي الفعلية من هذه المغامرة، ولا كانت هي تدرك ما تريد بالضبط مني، فلقد كانت قصتها شبيهة بقصتي، ولكن من زاوية معاكسة، كانت هي دائمًا الضحية، المرأة التي يمارس عليها الاضطهاد، بينما كنت أنا في الطرف الآخر من الحكاية أمثل الجاني، الذي لم يترك يومًا شخصًا يفرض عليه خط سيره، والذي عاش حياته يفرض منطقه على غيره، ويمارس حقه الشيطاني في القتل دون شعور بالرحمة أو الشفقة على تلك المخلوقات البائسة، بل لم تدخل هذه الأوصاف قاموسي بعد، وكنت دائمًا بحاجة أن أتنزه عنها وأتجرد منها، إنَّها ليست مشاعري، وهي خارجة عن طبيعتي، وعلى العموم، ذهبت لملاقاة سميرة قطاش في قاعة الشاي تاكفاريناس بحسب العنوان الذي أعطتني إياه، وخالجني شعور بالقلق، أن تكون قد أحست بشيء سيئ ناحيتي، أو بلغها أمر غير حميد بخصوصي، ولكنّي بسرعة أبعدت عن خاطري مثل هذا الأمر؛ إذ لا أحد يعرف هويتي لا هنا، ولا في الجزائر العاصمة إلاَّ قلة قليلة ربما، منهم الضابط (ع)، والذي ليس من مصلحته أن يذيع عني أي سر، فنحن متورطان في مكتب الجريمة الذي أسسناه معًا، وهو الخاسر الأكبر إن خرج سرُّنا إلى العلن، ثم هو من النوع الذي لا يفشي الأسرار، فتربيته

وتكوينه الأمني وتجربته فترة التسعينيات تجعله بعيدًا عن الشبهات بالنسبة لي، لكن كل ذلك لم يكن يمنعني من الحيطة، والحذر منه؛ فهذا العالم لا يقوم على الوفاء، ومصلحتي قبل مصلحتك، وحياتي أولى من حياتك، ولهذا كنت حضرت نفسي لكل السيناريوهات السيئة، وحتى أكثرها سوءًا، فأنا منذ صغري عندي غريزة نشطة في الاحتياط من الآخرين، مهما كانت درجة قربهم مني، ولهذا السبب وضعت كل الاحتمالات في ذهني، وخاصة احتمال تغيير البذلة، وكنت أعتبر الخيانة واحدة من الأشياء الأليفة للبشر حتى لو كانوا يدعون مقتها أمام العلن أشد المقت.

طوال الطريق حتى قاعة الشاي دارت كل هذه الوساوس والأسئلة في رأسي، وتركت لها الحبل كي تنساب بهدوء، وتأخذ مساحة أكبر من تفكيري حتى لا يفاجئني شيء غير متوقع حتى من هذه المرأة التي عملت على الانتقام لها من المجرمين الذين سببوا لها آلامًا جسدية وروحية حقيقية، بالرغم من إحساسي بقوتها الداخلية، وصمودها الأسطوري، والذي لم يخف عني أنّها تتظاهر به لكي تخفي جرحها الذي لا يتوقف عن النزيف، ورغبتها الأكيدة في الموت، ولولا أنّني شعرت أنّها تريد الموت، أو لم تعد تخافه لما تحرك شيء في نحوها، أو لما شعرت بهذا الارتباط الغريب بيننا، ولما فعلت ما

فعلت، صحيح أن القتل بالنسبة لي هو تلبية لرغبة عميقة ومتجذرة في داخلي، ولغريزة متوهجة باستمرار، وأنا أفعله لأنّه يحقق لي لذة جسدية وروحية غير محدودة، وبالتالي فأنا بقدر ما انتقمت لها بقدر ما حققت لنفسي هذا الإشباع الروحي الكامل، حتى لو أنّه إشباع مؤقت، يدوم فترة القتل، وفترة ما بعده لبعض الوقت، ثم يختفي، ويعود الجوع الأول ليسيطر عليّ، وهذا ما يدفعني للبحث عن ضحية جديدة، فأنا من هذه الناحية أعرف جيدًا من أكون وما هي هويتي، حتى لو كان ظهور سمير قطاش مخلخلاً لمساري، ومهددًا له، فحضورها في حياتي غير بعض الأشياء ورسم خطوطًا جديدة، لكن بقيت منتبها إلى ضرورة أن أحافظ على خيط واحد على الأقل، أن لا أكون مندفعًا بشكل همجي وأحمق، وأن لا أكون أيضًا تحت رحمة أحد ما، مثلما كنت أعيش في السابق ومثلما سأعيش دائمًا، وهو الخيط الذي يحميني ويشكل مناعة لي ضد السقوط.

وجدتها تنتظرني بالقاعة، جالسة وحدها، كانت الساعة الحادية عشرة صباحًا فلم يكن هنالك شباب كثيرون، بعض العشاق يحتلون أماكن في الزاويا شبه المعتمة حتى لا ينتبه لهم أحد، جميلة كالعادة، بعينين منفتحتين قليلاً، ومنتفختين كثيرًا، كأنّها عانت من أرق طويل، ولم تنم إلاّ ساعات

قليلة، دون سلام سألتها وأنا أجلس: وجهك مرهق.

رفعت بصرها نحوي وحاولت تصنع ابتسامة خفيفة، وشرحت أنّها امتحانات الطلبة والمراقبة اليومية التي أتعبتها، وسألتني بدورها عن أحوالي وماذا فعلت خلال الأسبوعين الأخيرين؟ وهل سافرت إلى مكان ما؟ فلم أجبها إلاّ بالقليل، وأنا أحاول أن أشتت ذهنها في حكايات لا معنى لها ولا قيمة، وأستهلك بعض الوقت حتى تدخل مباشرة في الموضوع الذي طلبت لقائي من أجله، وهذا ما حدث، عندما أحست أني لا أقول أمورًا مهمة حيث أخبرتني عن قلقها:

– ما الذي يقلقك؟

– قرأت أمس خبر مقتل...

– هل تقرئين مثل هذه الأخبار؟

– لا، الحقيقة أنّي وجدت الجريدة في قاعة الأساتذة مفتوحة على جريمة قتل ضحيتها ذلك الشخص الذي حاول ابتزازي بصوري العارية... لقد حكيت لك عنه هل تذكر؟

تصنعت عدم التذكر، وقلت بسرعة:

– قليلاً، ذاكرتي ضعيفة حقًّا اعذريني، ثم في النهاية هو خبر مفرح.

– مفرح، لا أظن...

- لماذا؟ أليس هو الذي حاول أن يبتزك.
- نعم، ولكن... القتل هذا شيء فظيع...

هنا توقفت عن الكلام، ورحت أحاول تفحص ملامحها جيدًا، ظننت أنّها تخدعني، أنّها تمثل عليّ، ربما تريدني أن أعترف لها أنّي القاتل، وإلاّ لماذا لم تخبرني بكل هذا في الهاتف، أو لم تمر عليّ في البيت كعادتها، وتطرح أمامي ما يقلق بالها ويشغل تفكيرها، حافظت على اتزاني، فلي المقدرة دائمًا على أن لا أظهر لها شيئًا، واستمرت هي في الحديث بتحسر واضح:

- المشكلة ليست هنا فقط... حتى الشخص الذي اغتصبني سمعت أنّه قتل منذ شهرين...

هنا كان عليّ بسرعة أن أرتدي قناع المستغرب، وأنا أفتح فاهي عن آخره مندهشًا من حديثها، وهي تقول:

- لقد اتصلت بي الشرطة لتخبرني بالأمر، وحققوا معي بعض الوقت، على اعتبار أنّهم اكتشفوا بطريقة لا علم لي بها أني كنت ضحية من ضحاياه.
- لكنّك لم تبلغي عنه.
- لقد وجدوا فيديو في بيته، القذر صور عملية الاغتصاب بكاملها واحتفظ بها لنفسه.
- حسنًا هذا الرجل كان يستحق القتل من زمان...

لم تعلق على كلامي، وفهمت أنّها في حالة سيئة، ومضطربة ولا تعرف ماذا يحدث لها أمام مقتل شخصين كانا سببًا في أذيتها، وكانت تكرههما بتطرف، ولكن لم تتوقع حتى في الحلم أن عدالة من السماء ستنزل عليهما مثل هذا العقاب الجهنمي المروع...

وعلى الرغم من تماسكي الخارجي إلاّ أنّ التوتر بدأ ينهشني قليلاً، وشعرت بحالة الضعف لأول مرة، كما لو أن شخصًا أزاح عن وجهي القناع الذي ألبسه وصار ينظر إليّ كما أنا على حقيقيتي العارية، وفكرت أن أنهي الحديث معها وأنصرف، وأعود للبيت وأجهز حقيبتي وأغادر مدينة تيزي وزو في أسرع وقت إلى بيتي الأول بالجزائر العاصمة، والذي بسبب حالة الضعف الطارئة التي هجمت عليّ خمنت في لمح البصر بيعه في يوم أو يومين ثم السفر إلى الصحراء، إلى نقطة بعيدة في الصحراء، وأختفي هنالك فترة زمنية طويلة، حتى يتم نسيان هذه الحوادث، أو إهمالها وطيها في ملفات رسمية تدرج في الجرائم التي لم تحل أو تنسب لمجهول...

لكن شيئًا ما أبقاني في مكاني لا أتحرك، خاصة عندما وضعت يدها على يدي في تلك اللحظة، ثم مالت برأسها على صدري وهي تقول لي:

- لقد خفت فجأة من كل هذا الذي حدث، وعندما تذكرتك شعرت بالأمان... قلت ما دام في حياتي البائسة شخص مثلك فأنا مستعدة أن أقاوم، ولن أستسلم لا للخوف ولا الهزيمة.

فاحتضنتها بدوري كما لو أنّي أحتضن قطعة من الجنة، قطعة من ضوء القمر أو الشمس أو الآلهة التي لم أؤمن بها يومًا، وأحسست بسريان رعشة مثيرة في روحي، لم أحاول تفسيرها، كانت هكذا جميلة في حد ذاتها دون تفسير، ولو قدر لي شرحها لأخفقت دون شك، فهي كالمشاعر التي لم أقبلها فيَّ يومًا وتدفقت في شعور غريب غير واضح قد يكون اسمه الحب... قلت لها مواسيًا:

- أنا بجانبك... لا تشكي في ذلك أبدًا.
- أعرف، ولهذا أنت من خطر على بالي أن أفضي له بما توجعت بسببه، وخفت منه.
- يمكنك أن تثقي بي وسأكون ظهرك الذي يحميك من طعنات الآخرين...
- هل تعرف، في السابق عندما كنت طالبة جامعية وأسكن في حيّ جامعي أنا من كان يحمي الأخريات، كان دوري طمأنتهم، مساعدتهم، الدفاع عنهم، محاولة إقناعهم أن المرأة قويّة بروحها ومعارفها ولا

يجب أن تمزم أبدًا، لكن لا أدري كيــف في لحظــة شعور بالتدني سقطت في هوة سحيقة من العدم، هل كان ذلك بسبب حب عاثر مع صادق سعيد... هل لأنّي بإغرائه في سيارته شوشت علاقته بصديقته سارة حمادي، وجعلته آثمًا بعد أن كان رمزًا للنقاء الكلــي في المرحلة التي عرفته فيها، لقد فعلت ذلك انتقامًــا لحب مجهض، كان يمكنني تجاوزه كما نتجاوز خيبــة الحب الأول ونمضي بحثًا عن شيء آخر، لكــن، لا أدري لماذا لم يحدث هذا معي، لماذا بقي حبه يلسعني، هل لأنّه حب حقيقي، صادق، عنيف ومجرم، هــل لأنّه حب لم يكن من حقي التنازل عليــه، فــدفعت الصادق لارتكاب الخطأ معي، ودفعت صديقه فاروق طيبــي ليقع في حبــي فقط لأنال مــن الصــادق، وأوصلت خبر خطيئته معي حتى لصــديقته ســارة لأكسر علاقته بها، كما ترى أنا أيضًا مذنبة، شــريرة ومجرمة وأستحق القتل، كما ترى أوصــلت نفســي نتاج حبــي أو تموري العــاطفي المتطــرف إلى أن أدخل في حائط سميك وأضرب رأسي فيه، أضــربه عشرات المرات حتى أفقد الوعي وأموت، لكــن لم أمت، في كل مرة كنت أسقط فيها كنــت أنهــض

بشكل ما، وأبحث عن رجل جديد، عـن شـخص يستطيع إنقاذي، لقد نسيت سمـيرة قطـاش الأولى الناجحة والمتوثبة والقوية والتي كانت تريد أن تحقـق أحلامًا أخرى في الحياة بعيدًا عن الرجال وشرورهم التي تحدث حتى من دون وعـيهم... كمـا تـرى أحدثك بقلب مفتوح، وأفضي لك بكل أسـراري حتى السيئة منها ذلك؛ لأنّني أشعر أنّني مدانة قبل أن أدين أي شخص أساء لي فيما بعد... بل تصور كنت أعترف بيني وبين نفسي أنّه كان لهم كامل الحـق في الإساءة إليّ لأنّي فكرت أنّي فاجرة روحيًـا، امـرأة مدنسة... تدنست بسبب شعور طاهر اسمه الحب... أليس هذا غريبًا أن يدفعنا الطهر إلى الدناسة، وما هو نبيل وفاضل إلى الشر... أليس غريبًا أن يتغير كـل مسار حياتي بسبب ما شعرت به نحو صادق، ومـا دفعني إلى كل ما فعلت كي أجعله يسقط بـدوره في الخطأ لأنّه لم يخترني أنا واختـار امـرأة أخـرى أو اختارها له الحب... فلا سلطان على الحب ولا على القلوب فقد تفرح قلبان وتحزن قلبًا آخر، وبما أنه في بني البشر مس من الشيطان فهو يغلب يد الملائكة التي ننسى أنها لمستنا هي الأخرى، ويدفعنا إلى ارتكـاب

الحمق، الذي يقود إلى الدناءة ثم السقوط، ثم تـــأتي مرحلة أخيرة: الإحساس بأننا خلاص وصلنا لنهايـــة ما، ونريد أن نموت؛ فلم يعد ممكنًا بعد كل ما فعلناه وحدث لنا أن نستمر؛ لأنّ الحياة حينها تصبح مهزلة أو أشبه بمسرحية عبثية ورديئة... لا أدري لماذا أفضي لك بكل هذا، ربما لتعرفني على حقيقتي، ولكـــي لا تتوهم أنّي إنسان فاضل وأستحق الشفقة والتقـــدير منك، بل لكي تراني كما أنا بكل ما أحمله من جروح وانكسارات وضعف وبؤس وغباء وحقارة وحـــب أيضًا لشخص بعيد الآن، جد بعيد، ولم يعد ممكنًا أن يعود إليّ، وحتى لو عاد فلن يجدني كما في المرة الأولى التي أحببته فيها، حينما كنت متألقة وحالمة ومناضلة وصاحبة موقف ورأي شجاع، لقد حاولـــت منـــذ مجيئي لتيزي أن أرمم الجرح، أن أكتب له رســـائل، وكتبت له بالفعل رسائل كثيرة وأرسلتهم له، كنت لا أزال في قمة حبـــي المتوهج، حالمة أن يكون لي، لا لغيري، أن يقتنع أني أنا الأفضل له، لا تلك اللعينة سارة حمادي، لكنه لم يرد عليّ، ولا علـــى رســـالة واحدة، لقد تركني أتآكل، أتمزق وحدي، وأندثر في ضباب غربتي وعزلتي ومنفاي... لهذا بدأت ألعـــب

بالنار، بدأت أجرب أشياء خطيرة أوصلتني إلى مـــا وقع لي...

الشيء المؤسف في هذه القصة هو انتحار صديقه فاروق طيبـــي، آه كم تألمت عندما عرفت أنه فعلها الحقير، كانـــت تلك هي أقصى عقوبة أوقعها رجل بـــي، لقد انتحر بعـــد أن هاتفني في الليل، وأخبرني أنه لا يستطيع النوم، أنه من دوني لن يقدر على العيش، وأنه يعرف بقصة حبـــي لصديقه صادق، وأنه متفهم للأمر، وأن الصادق يحب سارة ولن يتخلى عنها، وأنه الخيار الأحسن، كان يدرك أني مارست معه الجنس ليس رغبة في الجنس، كان يدرك أني كنت أنتقم من صادق... لقد ثار عليّ مرات عديدة، طلبني للزواج والحياة معًا، اقترح عليّ أن نسافر بعيدًا ونهرب من هذه الجزائر التي سرقت منا شبابنا وأحلامنا وآمالنا كلها... ومن هذه الدوامة التي إن بقينا فيهـــا لن نخرج منها سالمين، ولأنّي كنت أرد عليه بقسوة وصـــرامة وعنف كان يختفي فترة من حياتي ثم يعود، حالمًا مرة أخـــرى بـــي، متوسلاً إليّ، مستصغرًا كرامته مع أنه كان معتزًا بها مع الآخرين، كان الحب يضعفه مثلما كان يضعفني أمام صادق، وكم تمنيت لو كان صادق مثلي يستطيع أن يمـــتعني بجســـده مثلما فعلت مع فاروق... صادق كان وفيًّا لمن يحب... لقـــد آلمني يوم وصلني خبر انتحاره... لقد كتب لي رسالة قصـــيرة

يودعني فيها: «لا تقلقي بشأني لقد انتقلت إلى العالم الآخر وأنا سعيد الآن... أتمنى أن تجدي شخصًا تحبينه ويحبك بالشكل الذي أحببتك به أنا...»، كل هذا دفعني إلى مزيد من التحطم والهلاك، لقد كنت أنانية وقاسية ودمرت قلب رجل صادق كانت له أيضًا طموحاته الكبيرة قبل أن يعرفني... ثم بسبب الحب اللعين تحطمت كلها وصرت نقطة ضوئه السوداء في عالم لم يكن سعيدًا لنا...

توقفت سميرة عن الحكي فجأة، وبدأت دموعها تنحدر من مقلتيها بشكل عفوي ومؤلم، وجدت من جهتي صعوبة بعد كل هذا الإفضاء الطويل الذي سمعته منها النطق بكلمة صغيرة واحدة، كانت في حالة تشقق نفسي وضعف مروع، ومع ذلك شعرت أنها صارت شفافة، لقد تقيأت من جوفها كل شيء، وطرحته إلى الخارج، وتساءلت مع نفسي ماذا تريد مني الآن؟ إنها منكسرة ومهانة ولا تنتظر مني شيئًا، أو ربما شيئًا واحدًا لكنها لم تجرؤ على التصريح به جهارًا، هل أدركت من أكون؟ هل تريدني... لا... لا أستطيع أن أقول ذلك... هذا مستحيل... وماذا لو كان هذا ما يدور في عقلها بالفعل... ماذا لو كان هذا هو طلبها الأخير؟ هل أقبل؟ لماذا لا أقبل؟ سيريحها ذلك وأنا هل سيريحني؟

***

كما لو أن قتلي لسميرة قطاش قد أنهى علاقتي بتيـــزي وزو نهائيًّا فقررت العودة إلى مسقط رأسي بالجزائر العاصمة، جهزت من جديد حقائبـــي، وتركت مفاتيح بيتي المستأجر داخل علبة الرسائل وأخبرت الشاب القبـــائلي بالهـــاتف أني عائد من حيث جئت، شكرني وهو يذكرني باسمي المســـتعار الذي اخترت أن أقدمه له ونسيته تقريبًا طول مكوثي هنـــا «شكرًا كمال عازب على مرورك بيننا».

أما كيف فعلت ذلك؟ فلقد تم كل شيء بصورة شاعرية بل حتى أستطيع أن أقول رومانسية دون تردد، لقد ذهبـــت معها لبيتي، بعدما أفضت لي بكل أسرارها، وبعد أن اقتنعت بيني وبين نفسي أني لم أكن بطبيعة الحال الرجل الذي يمكن أن ينقذها من كل ذلك الذي عاشته بسبب جنـــون حبـــها لذلك الرجل، وبسبب كل ما ترتب عليه من مآسٍ ومزالق، وجروح وخيبات لم يكن بإمكان حتى حب قويّ وجديـــد إعادة الأمور إلى ما كانت عليه من قبل، ثم كان كل شـــيء بديهيًا بعد أن قالت لي بوضوح كامل: «أظن أن قوة غامضة أرسلتك في طريقي لتنهي رحلتي هذه».

بقيت أفكر في جملتها تلك «قوة غامضة أرسلتك» لقـــد فكرت في أمر كهذا من قبل، وآمنت به مرات، وسخرت منه مرات أخرى، وقلت إنني كقاتل يجب أن لا أأله نفســـي أو

أرفعها إلى مستوى أكبر ممَّا هي عليه، وكل ما هنالك أنـــني شخص له هذه الميولات غير الطبيعية بالنسبة للآخرين، والتي أحس أني ولدت بها، وهي التي قادتني إلى مثل هذا الطريـــق، ولقد سرت فيه حتى الآن دون أدنى وخز ممَّا يسمونه الضمير، ومن دون أي شعور بالشفقة أو الرحمة، وصحيح أنَّني فكرت في لحظة من اللحظات أن سميرة قطاش قد تكون هي المخلص أو الذي من شأنه أن يحدث في طبعي تحولاً ما، ولأول مـــرة انسقت وراء هذا الوهم الجميل، لقد حاولت أن ألبس قناعًا آخر، وأصبح لزمن قصير شخصًا يشبه كل النـــاس، لكنِّـــي بسرعة تراجعت عن ذلـــك، وعـــدت إلى حقـــيقتي الأولى، حقيقتي الحقيقية، فهي التي تناسبني، ربما ساعدتني سميرة قطاش في أنَّها فهمتني كما ظننت أنَّني فهمتها، لقد أدركت بحدسها أنِّي القاتل، بالرغم من أنَّها لم تقل شيئًا، لقد أعادت ســـرد بعض خبايا قصتها، ما شعرت أنَّها ارتكبتـــه مـــن ذنـــوب تفجرت في حياتها، هي تؤمن أن الشر الذي نرتكبه في حـــق غيرنا نعاقب عليه في يوم ما علـــى هـــذه الأرض، ولـــيس بالضرورة في مكان آخر، وهي تشعر أنَّها عوقبـــت بأشـــنع الطرق، خاصة مع حادثة الاغتصاب، وانتحار ذلك الـــذي عشقها بجنون ثم وضع حدٌّ لحياته، ومع ذلك بقيت صامدة أو تنتظر لحظة خسوفها التي ستأتي على يد رسول من الجحيم،

أو بيد القدر، أو من مكان غامض لم تحدده قط.

لقد طلبت مني أن نذهب إلى بيتي، أن نقضي ما تبقى من اليوم سعداء، ومرحين كالأطفال الذين لا ينتظرون شيئًا بعد من الحياة، وعندهم ثقة كبيرة أنه لن يحدث لهم مكروه فيها مهما فعلوا من شرور، أو ارتكبوا من حماقات، فعدت بها لبيتي، وفي الطريق اشترت شموعًا كثيرة، قالت أريد أن أضيء بيتك بالشموع، ونطفئ جميع مصابيح الكهرباء، أريد أن يكون رحيلي في هدوء الصمت، وجلال الحب... لم أفهم دلالات كلماتها جيدًا ومغزاها الحقيقي، تركتها في خيط تفكيرها دون تدخل، تركتها تبني ما تبنيه في خيالها، فقط شعرت أنَّها تريد أن تنهي حياتها من دون ضوضاء، بلا أصوات ذاكرتها المزعجة، بلا أشباح الماضي المرعبين، بلا حكاياتها الحزينة، بلا كل تلك المآسي التي تجرها على أكتافها بكآبة منذ سنين، ترحل في حُلة جميلة، وبشيء من الهدوء...

كنت أدرك مهمتي جيدًا، لقد استيقظ فيَّ القاتل دون حتى أن أنتبه له، مع أني كنت خدرته كل تلك الفترة القصيرة التي عشتها معها، وانتقمت لها من أولئك المجرمين، وليس منها هي، كانت تبدو لي طريقًا جديدًا، لكن سرعان ما تهاوى ذلك الطريق، ليس فقط لأنَّه لم يكن واقعيًّا ولا منسجمًا مع طبيعتي العميقة فحسب، بل لأنَّه كان مجرد وهم

خيالي استأنست له وتركته ينمو بداخلي، كتجربة جديـــدة، تجربة لا تشبه تجاربـــي السابقة، وها هو يقودني إلى لحظـــة نهاية تشبه كل قصص قتلي السابقة...

قضينا الظهيرة نستمع لموسيقى كلاســيكية لشـــوبان، تشايكوفسكي، بيتهوفن، وقـــد أطفأنـــا ضـــوء المصـــابيح الكهربائية، وأشعلنا الشموع، صار البيت أشبه ما يكون بمزار صوفي، تحس رائحة الغيب تتكلم فيه، وتتكلم بـــداخلنا، لم أحس بهذا طبعًا، ولكن هي أحست كما أخبرتني، ثم طلبت مني أن أقبلها بعمق، قبلة طويلة، أن أمارس معهـــا الحـــب بشعور من ستمارسه لآخر مرة، وأحسست برجفة حقيقيـــة وبكامل جسدي يغيب في داخل جسدها، ثم طلبت مني أخيرًا أن ننتقل للفصل الأخير من الحكايـــة أن تشـــرب الســـم، فأحضرت لها كوب الماء ووضعت فيه ما يجعلها تغيب عـــن الحياة إلى الأبد...

كان ذلك هو الشكل الوحيد الـــذي يليـــق بســـميرة قطاش... لقد كانت ترغب في رحيل هـــادئ، ولأول مـــرة مارست قتلاً شاعريًا ورومانسيًا، وحقق لي رغم كل ذلـــك لذة قصوى لا تقاوم...

* * *

عدت إلى الجزائر العاصمة بعد أن نقلت جسد سميرة إلى بيتها في وقت متأخر من الليل، تركته فوق سرير النوم وبقربها علبة السم التي قادتها إلى الهلاك، حتى يظن الجميع أنها وضعت حدًا لحياتها، مثلما أرادت هي أن يكون الأمر، وكان آخر ما طلبته مني أن أوصل اعتذاري لهذا الصادق سعيد... أحكي له القصة بكاملها وأطلب منه أن يغفر لي ما سببته له من ألم وأني كنت سبب انتحار صديقه الروحي فاروق طيبي، وأن ثمن كل هذا الشر دفعته في حياتي غاليًا، فوعدتها أني سأفعل.

وجدت بيتي بالعاصمة مهملاً للغاية، احتجت إلى عدة أيام لتهيئته من جديد، ثم فكرت في الوعد الذي قطعته على نفسي أن ألتقي بالصادق سعيد وأخبره بكل شيء.

ذهبت صباحًا باكرًا للجامعة، سألت عنه فقيل لي إنه يوجد في مستشفى الأمراض العصبية بالبليدة... استغربت من ذلك، وسألت أحد زملائه فرد علي مستفهما بدوره:

- أو لم تسمع بالقصة؟
- لا لم أسمع؟
- بعد طلاقه من سارة، وانتحار صديقه فاروق تسبب له ذلك في انهيار نفسي مفاجئ...
- هل أنت متأكد ممّا تقول؟
- نعم، يمكنك زيارته بالمستشفى إن أردت.

وقبل أن أشكر هذا الأستاذ، أمسكني من يدي قبل أن أغادره وأضاف شيئًا:

- وهنالك من يقول إن السبب هو شيء آخر.
- ما هو هذا السبب الآخر؟
- لقد أكثر من نقده لبعض الرجال النافذين.
- الجميع اليوم ينتقد، أين المشكل؟
- لا، هو كانت له مصداقية، كانت كتاباته تؤثر، ولقد وجهت له تحذيرات كثيرة، ويبدو أنه لم يهتم بخطورة ما يكتب.
- هل تقصد هم سبب دخوله المستشفى؟
- هنالك من يقول ذلك...

ركبت سيارتي وتوجهت بها إلى مستشفى الأمراض العصبية بالبليدة، وحاولت عبثًا مشاهدة صادق سعيد، لقد قيل لي إنَّه بالفعل متواجد هنا منذ شهور، وأن حالته سيئة، وأن الطبيب المختص منع زيارته، ورفضوا حتى أن ألقي نظرة سريعة عليه، ومع ذلك اهتديت إلى حل سريع؛ إذ عرضت على أحد الممرضين مبلغًا ماليًا فمكنني حتى من الدخول إلى غرفته، كان في حالة يرثى لها، نحيل الجسم، وشبه مخدر من كمية الأدوية التي تعطى له يوميًا، قال لي الممرض: كما ترى لن يقوى حتى على الكلام معك... ومع ذلك قلت له: سميرة

قطاش تعتذر منك. تقول لك سامحني وتخبرك أنها انتحرت لتكفر عن ذنبها نحوك... عندما قلت ذلك كله شاهدته يرفع عينيه الشاحبتين نحوي ويطيل النظر إليّ، ثم أنزلهما من جديد إلى الأرض، وانكمش داخل الإزار الأبيض الذي كان يغطيه حتى بات يشبه رضيعًا فوق سريره ثم غاب في نوم عميق...

* * *

كنت ممددًا فوق سريري لا أفكر في شيء، أستمع لصوت ذبابة تطن، وهي تتنقل من مكان لآخر، لم يكن صوتها مزعجًا، بل ظهر لي كصوت موسيقى عذب لرجل يحتضر... فجأة رن الهاتف، كان صوت السيد (ع) يأتيني من بعيد:

- المحقق هارون ما زال يبحث عنك، ولكن لا تقلق لم يحصل عن أية معلومة مهمة فيما يخصك، لكن الشيطان سمعت أنه سافر إلى تيزي وزو مؤخرًا ليحقق في جريمة قتل حدثت هناك، وحتى في قصة انتحار امرأة بالسم، أتمنى أنّه لا دخل لك في هذه القصص.

أجبته بسرعة مبعدًا عني الشبهة:

- طبعًا لا دخل لي فيها.

ثم أضفت سؤالاً أخيرًا:

– ومتى نعود للعمل من جديد؟

قريبًا... لا تقلق... المشروع ناجح، ووصلتني الكثير من الطلبات، فقط يوم أو يومين وتعود إلى العمل من جديد.

اخْتلاطُ المَواسِمْ

بشير مفتي

▪ روائي جزائري ولد عام 1969، له عدة روايات من بينها «أرخبيل الذباب»، «شاهد العتمة»، «بخور السراب»، «خرائط لشهوة الليل» و«أشباح المدينة المقتولة» وقد ترجم بعضها إلى اللغة الفرنسية، ووصلت روايته «دمية النار» إلى القائمة القصيرة لجائزة البوكر العالمية العربية دورة 2012.

وكانت تلك الخيبة المشعة كضوء القمر تزيد من غربتي عنها، وعن الآخرين... كانت ترميني في هاوية سحيقة ومظلمة، فتوثِّق صلتي بالعالم الآخر، العالم الذي توجد فيه الظلمات، أو ما يسميه البشر البائسون كذلك؛ لأنَّهم يخافون منها، وما يخافه الإنسان يتهمه بكل شيء سيئ ويصفه بأقبح النعوت، بينما كانت الظلمات هي تلك المنطقة التي تجذبني وتغريني أكثر، دون أن أعرف ما الذي كان ينتظرني هنالك، في تلك العتمة المرعبة لغيري، والمغرية لي؟! لقد صرت وحيدًا إلَّا من نفسي! لم يعد هنالك مَن يتحكم في أفكاري أو حركاتي، وحتى لو قمت بمجزرة ضد كل القطط لن يعترض عليَّ أحدٌ، أنا حرٌّ في بيتي، ولا يحقُّ لأيٍّ كان أن يتدخل في أموري الخاصة والعامة من ذلك اليوم فصاعدًا، لقد صرت بشكل ما سعيدًا.

مكتبة نوميديا 171
Telegram: @Numidia_Library

ISBN: 978-614-02-1699-0
9 786140 216990

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
editions.elikhtilef@gmail.com

منشورات ضفاف
Editions Difaf
editions.difaf@gmail.com

جميع إصداراتنا متوفرة في موقع نيل وفرات.كوم www.neelwafurat.com - www.nwf.com

تصميم الغلاف: يوسف القوتلي